الإستراتيجية التوجيهية

في سورة مريم دراسة في ضوء تداوليات الخطاب

أ . م . د. لمى عبد القادر خنياب

كلية الآداب / جامعة القادسية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة :

الحمد لله فوق حمد الحامدين ، والصلاة والسلام على خاتم النبيين وآله الطيبين الطاهرين وصحبه أجمعين ، وبعد ...

لا شكَّ أنَّ البيئة العربية بيئة نصوص ثرية مفعمة بالبلاغة تشتمل على فكر عميق وإحساس مرهف ، أما البيئة الغربية فهي بيئة مناهج وعلوم وتخطيط ؛ لذا يستهوي كثير من الباحثين الجمع بين هاتين الميزتين ، فيحاول تطبيق منهج غربي على نص تراثي جمعاً بين الحسنيين ، وأحسبني أحدهم ، فقد عنَّ لي أن أختبر معطيات الدرس التداولي الحديث على نص طالما تشوقت لدراسته على الرغم من دوام بحثي في القرآن الكريم ، لكن شغفي بسورة مريم (ع) يتزايد يوماً بعد آخر ؛ لذا كان هذا البحث الذي وسمته بـ(الإستراتيجية التوجيهية في سورة مريم دراسة في ضوء تداوليات الخطاب) .

يرصد البحث الأفعال التوجيهية التي ترتكز – بعامة – على تبليغ القصد وتحقيق هدف الخطاب بالانزياح عن مبدأ التأدب الخطابي لتشكل ضغطاً على متلقيها ، لكن بدرجات متفاوتة تبعاً لسلطة المرسل من خلال توجيه المرسل إليه إلى إيقاع فعل ما في المستقبل ، وقد وسمت بالطلبيات والأمريات التي تشف عنها الأساليب الآتية : الأمر ، والنهي ، والاستفهام ، والنداء ، والترجي ، والتمني ، العرض والتحضيض ، والإغراء والتحذير .

ولما كان الخطاب القرآني يشتمل على طبقات من المتلقيين ولا سيما في سياقات الإخبار عن قصص النبيين والأقوام السابقة – فالمتلقي الأول هو النبي أو المعني بالخطاب ، ثم الرسول الكريم (ص) وهو المتلقي الثاني ، وأخيراً يكون الناس كافة هم المتلقي الثالث – فكان لكل طبقة من هذه الطبقات نصيبها من التوجيه ، سواء أ كان هذا التوجيه مباشراً أم غير مباشر .

وسيأتي الكشف عن هذه الأفعال – بوصفها آلية حجاج لغوية – بعد تفكيك خطاب السورة المباركة إلى وحدات نصية يسير فيها التوجيه بحسب دلالات كل وحدة نصية .

المحور الأول

في المنطلقات النظرية :

يُعد الفيلسوف الانجليزي (أوستن) هو المؤسس الأول لنظرية أفعال الكلام ، إذ قدَّم اثنتي عشرة محاضرة في هذا الشأن بجامعة هارفارد ، وقد جُمعت بعد وفاته سنة (١٩٦٠م) في كتاب حمل عنوان أحدى محاضراته :

(how to do things with words) التي ترجمت بهذا العنوان (كيف ننجز الأشياء بالكلمات)[١] ، وفيها أنكر (أوستن) اقتصار اللغة على وصف الوقائع فتكون إما صادقة أو كاذبة وأطلق عليه (المغالطة الوصفية) محاولاً لفت النظر إلى وجود نوع من العبارات لا توصف بالصدق والكذب ، إذ تتكفل اللغة بتحويل بعض العبارات إلى أفعال ذات صيغة اجتماعية ضمن معطيات سياقية[٢] ، فحينما يقول قاضٍ ما : (فُتحت الجلسة) يكون قد أنجز فعلاً اجتماعياً .

وبهذا يكون (أوستن) قد نظر للأقوال على أنَّها قد تكون أحياناً أفعالاً أو مؤدية إلى أفعال ، وترجع أهميتها إلى إثبات أنَّ تلك الأقوال ذات معنى وتتسم بارتباطها بالمتكلم والموقف الكلامي[٣] .

وعليه يكون (أوستن) قد قسَّم الأقوال على قسمين :

الأول / الأقوال التقريرية أو الإخبارية ، التي تمثل الأساليب الخبرية في الدرس اللغوي العربي وهي ما يحتمل التصديق والتكذيب[٤] .

أما القسم الثاني فقد خصَّه بالأقوال الإنشائية أو الأدائية التي لا تشتمل على وصف أو إخبار ، وغير خاضعة لمعيار التصويب (الصدق / الكذب) بل اقترح لها معيار (الفشل / النجاح) إذ وصفها بالأعمال الخائبة إذا ما فقدت سياقاتها المقامية ، وأطلق عليها (الأفعال الانجازية)[٥] ، ويُعد هذا القسم – أعني الانشائيات (الأفعال الانجازية)– هو جوهر النظرية.

عند اقتراح (أوستن) ثنائية (النجاح / الفشل) في الانشائيات في مقابل (الصدق / الكذب) في الإخباريات ، كان لابدَّ من تقصّيه لشروط نجاح الفعل اللغوي حتى يتحقق الفعل الأدائي وقد أطلق عليها شروط الملاءمة ، وهي :

١- وجود إجراء عرفي مقبول وله أثر عرفي معين كالزواج والطلاق .

٢- أن يتضمن الإجراء نطق كلمات محددة ينطق بها أناس معينون في ظروف معينة .

---

[١] – ينظر آفاق جديدة في البحث النحوي المعاصر : ٤١ ، وترجمها بعضهم بـ(أن نقول هو أن نفعل) ينظر التداولية من أوستن إلى غوفمان : ٤٩ ، والتداولية اليوم ، آن روبول وجاك موشلار : ٣٠.

[٢] – ينظر نظرية الأفعال الكلامية في البلاغة العربية ، د. ملاوي صلاح الدين : ٢ ، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية ، ع / ٤ / ٢٠٠٩م ، و نظرية الأفعال الكلامية في ظل جهود أوستن، يسمينة عبد السلام : ١٠٧ ، مجلة المخبر ، ع / ١٠ / ٢٠١٤ .

[٣] – ينظر نظرية الأفعال الكلامية بين التراث العربي والمناهج الحديثة دراسة تداولية ، محمد مدور : ٥٠ ، مجلة الواحات للبحوث والدراسات ، جامعة غرداية ، الجزائر ، ع ، ١٦ / ٢٠١٢م .

[٤] – ينظر آفاق جديدة في البحث النحوي المعاصر : ٤٣ ، والإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة :٤٩٧ ،و نظرية الأفعال الكلامية في البلاغة العربية: ٢ ، ، و نظرية الأفعال الكلامية في ظل جهود أوستن : ١٠٧

[٥] – ينظر آفاق جديدة في البحث النحوي المعاصر : ٤٣ ، والإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة :٤٩٤ – ٤٩٥ ، و نظرية الحدث الكلامي من أوستن إلى سيرل ، د . العيد جلولي : ٥٣ ، مجلة الأثر ، عدد خاص بأعمال الملتقى الدولي الرابع في تحليل الخطاب .

٣- أن يكون الناس مؤهلين لتنفيذ الإجراء .

٤- أن يكون التنفيذ كاملاً . وقد اصطلح د. محمود أحمد نحلة على هذه الشروط بالشروط التكوينية[١].

أما الشروط القياسية – بحسب د. نحلة[٢] – فهي :

١- أن يكون المشارك في الإجراء صادقاً في أفكاره .

٢- أن يكون المشارك في الإجراء صادقاً في مشاعره .

٣- أن يكون المشارك في الإجراء صادقاً في نواياه .

٤- أن يلتزم بما يلزم نفسه به تجاه الآخرين . وأجملها د. خالد ميلاد بعبارة (الإرادة والقصد وحسن النية وصدقها)[٣]

لكن يبدو أنَّ (أوستن) لم يطمئن لهذه الشروط إذ تصدق أحياناً على بعض الأفعال الإخبارية فلا تكون حاسمة في الفصل بين الأفعال الأدائية و الإخبارية ؛ لذا ذهب إلى أنَّ الفعل الكلامي مركب من ثلاثة أفعال تنصهر لتكون كياناً واحداً وتُؤدى في الوقت نفسه الذي يُنطق فيه الفعل الكلامي ، وهي :

١- فعل القول[٤] أو الفعل الصوتي[٥] أو اللفظي[٦] ، أو اللغوي[٧] :

(**locutionary acte locutionnaire | act**) ويراد به الجمل ذات البناء النحوي والدلالي الصحيح لينتج المعنى الأصلي .

٢- فعل متضمن في القول[٨] ، أو الفعل الغرضي[٩] ، أو الفعل الانجازي[١٠] ، أو فعل مقصود بالقول[١١] :

(**acte illocutionnaire |illocutionary act**) ويراد به ما يؤديه الفعل السابق (فعل القول) من وظيفة في الاستعمال فهو يريد غاية المتكلم من أمر ، أو تعجب أو استعطاف ... الخ ، والفرق بين الفعل الأول والثاني أنَّ الثاني هو فعل ضُمّن قول على حين أنَّ الأول قول فقط .

٣ – الفعل التأثيري[١٢] أو الفعل الناتج عن القول، أو الفعل بواسطة القول[١٣] ، أو عمل التأثير بالقول[١٤] :

---

١ – ينظر آفاق جديدة في البحث النحوي المعاصر : ٤٤

٢ – ينظر آفاق جديدة في البحث النحوي المعاصر : ٤٤ ،و القاموس الموسوعي للتداولية : ٥٧ – ٥٩ ، و نظرية الحدث الكلامي من أوستن إلى سيرل : ٥٥ .

٣ – ينظر الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة :٤٩٤

٤ – ينظر التداولية عند العلماء العرب : ٤٢ ، والاستلزام الحواري : ٨٦ ، و نظرية الأفعال الكلامية في البلاغة العربية : ٤ .

٥ – ينظر نظرية الحدث الكلامي من أوستن إلى سيرل : ٥٦

٦ – ينظر آفاق جديدة في البحث النحوي المعاصر : ٤٥

٧ – ينظر التداولية عند العلماء العرب : ٤٢

٨ – ينظر نفسه : ٤٢

٩ – ينظر نظرية الحدث الكلامي من أوستن إلى سيرل : ٥٦

١٠ – ينظر الاستلزام الحواري : ٨٦

١١ – ينظر نظرية الأفعال الكلامية في البلاغة العربية : ٤ .

١٢ – الاستلزام الحواري : ٨٦

١٣ – ينظر نظرية الحدث الكلامي من أوستن إلى سيرل : ٥٦

١٤ – ينظر نظرية الأفعال الكلامية في البلاغة العربية : ٤ .

(acte perlocutionnaire | perlotionory act) ويراد به ما يتركه الفعل الانجازي (الفعل الثاني) من أثر في نفس المخاطب أيَّاً كان شكل هذا التأثير محسوس أم ملموس . من حمله على تغيير رأيه أو فعل شيء ما[١] .

يُعد الفعل الانجازي هو عمدة هذه النظرية عند (أوستن) .

لكن يبدو أنَّ شروط (أوستن) هذه لم تنل استحسان (سيرل) من بعده ؛ لذا عمد إلى تطوير شروط الملاءمة هذه فجعلها أربعة[٢] ، وهي :

١- شروط المحتوى القضوي : أي أن يكون للكلام معنى قضوي[٣] الشرط التمهيدي (النطقي)[٤]: وهو مرهون مرهون بقدرة المتكلم على انجاز الفعل .

٢- شرط الإخلاص : وهو مرهون بصدق نية المتكلم في أداء الفعل فلا يقول غير ما يعتقد أو لا يزعم ما لا يطيق فعله .

٣- الشرط الأساسي (التأثيري)[٥]: وهو لصيق بمحاولة المتكلم التأثير في السامع لينجز الفعل .

وقد صاغ سيرل الأفعال المنجزة في أثناء التلفظ على أربعة أنواع للفعل في خطوة منهجية أكثر تنسيقاً :

(الفعل التلفظي ،والفعل القضوي ، والفعل التأثيري ، والفعل الانجازي)[٦] بعد أن كانت عند أوستن : (الفعل اللفظي ، والفعل الانجازي ، والفعل التأثيري) بزيادة الفعل القضوي على قسمة أوستن[٧] .

ثم قسَّم (أوستن) الأفعال الكلامية على أصناف على أساس قوتها الانجازية ، وهي :

١- الحكميات أو أفعال الأحكام :

ويراد بها كل فعل يدل على حكم يصدره حَكم أو قاضٍ ، كقولنا : قدَّر ،و قوَّم ، وشخَّص ، وحكَم ، ووصَف ، وأدان ، وبرَّأ ، وحلل ، وصنَّف ، وما إلى ذلك ، ولا يشترط في هذه الأفعال أن تكون إلزامية لدلالتها على التعميم.

٢- التنفيذيات أو أفعال القرارات أو أفعال الممارسة :

وهي الأفعال التي يعبر بها عن اتخاذ قرارات ضد شخص ما أو لصالحه ، ومن قبيل ذلك قولهم : طرد ، وأذن ، وحرَّم ، ونصح ، وعيَّن ، وانتخب ، وعزل ، وغيرها .

٣- الوعديات أو أفعال الوعد أو أفعال التعهد :

وبها يعبر المتكلم عن وعد أو تعهد يقطعه للمخاطب ويلزم نفسه بتنفيذه في المستقبل ، ومن قبيل تلك الأفعال : تعاقد ، ووعد ، وتعهد ، وضمن ، والتزم ، وكفل ، وأقسم ، وغيرها .

٤- السلوكيات أو أفعال السلوك أو السيرة :

---

١ - ينظر آفاق جديدة في البحث النحوي المعاصر : ٤٥ ، التداولية عند العلماء العرب : ٤١ - ٤٢ ،و نظرية الحدث الكلامي من أوستن إلى سيرل : ٥٥ ،و نظرية الأفعال الكلامية بين التراث العربي والمناهج الحديثة دراسة تداولية : ٥١

٢ - ينظر آفاق جديدة في البحث النحوي المعاصر : ٤٨ ،و نظرية الحدث الكلامي من أوستن إلى سيرل :٥٧

٣ - " نسبة إلى القضية التي تقوم على متحدث عنه أو مرجع أو متحدث به أو خبر " . آفاق جديدة في البحث النحوي المعاصر :٤٨ . ٤٨:

٤ - ينظر نظرية الأفعال الكلامية في البلاغة العربية : ٤ ، والاستلزام الحواري : ٩٢.

٥ - ينظر الاستلزام الحواري : ٩٢

٦ - ينظر نفسه : ٩٢

٧ - ينظر الأفعال الانجازية (الصراف) : ٢٤

وتعبر عن ردة فعل ما ، ومنها : شكر ، واعتذر ، وهنَّأ ، ولعن ، وما إلى ذلك .

٥- العرْضيات أو أفعال العرض أو الإيضاح :

وهي الأفعال المعبرة عن وجهات نظر ، أو بيان رأي أو حجج ، ومنها : اعترض ، وشكَّ ، واستفهم ، وأنكر ، وأجاب ، وأكد ، وردَّ ، وما شابهها[١] .

وقد نظر سيرل في تصنيف أوستن للأفعال فوجدها قاصرة على الأفعال الإنشائية فقط فعدَّل على تصنيف أوستن ووضع تصنيفاً جديداً لم يبتعد فيه كثيراً عن سابقه ، يمكن إجماله فيما يأتي :

١- التقريريات أو الإخباريات :

وفيها يتحمل المتكلم مسؤولية صدق القضية المعبر عنها أو كذبها ، واتجاه المطابقة فيه يكون من الكلمات إلى العالم ، وشرط الإخلاص يتمثل في النقل الأمين للحدث ، وهذا القسم لم ينظر فيه أوستن في قسمته المذكورة سلفاً .

٢- التوجيهيات أو الطلبيات أو الأمريات :

ويراد بها حمل المخاطب على أداء عمل معين بدرجات متفاوتة واتجاه المطابقة فيه يكون من العالم إلى الكلمات أي يطلب من العالم أن يطابق الكلمات والمسؤول عن إحداث هذه المطابقة هو المخاطب ، وفيها يدخل الأمر والنهي والاستفهام والنصح والاستعطاف وغير ذلك ، وقد جعلها أوستن ضمن أفعال السلوك (السلوكيات)[٢] .

٣- الالتزاميات أو الوعديات :

وغرضها الانجازي التزام المتكلم القيام بعمل ما في المستقبل واتجاه المطابقة من العالم إلى الكلمات والمسؤول عن إحداث هذه المطابقة هو المتكلم نفسه وشرط الإخلاص فيها القصد ، وتتضمن أعمال الوعد والوصايا والتعهدات ، وقد تسرب هذا النوع من الأفعال إلى سيرل من تصنيف أوستن .

٤- الافصاحيات أو التعبيريات أو البوحيات :

الغرض منها التعبير عمَّا نشعر به من انفعالات نفسية ولا تتطلب هذه الأفعال تحقق شرط المطابقة لأنَّ اتجاه المطابقة فيه اتجاه فارغ إذ لا يشتمل المحتوى القضوي في التعبيرات على شرط عام بل هي قضايا بوحية ترتبط بالمتكلم و المخاطب كالاعتذار ، والشكر ، والتهنئة ، والمواساة . وترسب هذا الصنف من قسمة أوستن فأبقى عليه سيرل كما هو .

٥- الاعلانيات أو التصريحات أو الايقاعيات :

وهي التي يقع الفعل بها بمجرد النطق به ، ونجاحها يكمن في مطابقة محتواها القضوي للعالم كإعلان الحرب فهي تغير الوضع القائم عند إيقاعها ، ولهذا تتسع لتشمل أفعال الزواج والطلاق والمعاملات من بيع وشراء وغيرها ، واتجاه مطابقتها مزدوج من الكلمات إلى العالم ومن العالم إلى الكلمات أيضاً ، ولا تحتاج إلى شرط الإخلاص ،

---

[١] - ينظر نظرية أفعال الكلام ، أوستن ، ترجمة : عبد القادر قينيني : ١٧٤ ،و التداولية ، جورج يول : ٩٠ - ٩١ ، وآفاق جديدة في البحث النحوي المعاصر : ٤٦ ، و الإنشاء في العربية : ٥٠٠ ،و التداولية من أوستن إلى غوفمان : ٦٢ ، و نظرية الحدث الكلامي من أوستن إلى سيرل : ٥٧ ، و نظرية الأفعال الكلامية في البلاغة العربية: ٤ ، و نظرية الأفعال الكلامية في ظل جهود أوستن : ١١١.

[٢] - ينظر استراتيجيات الخطاب : ٣٣٦

فشرط المطابقة يتحقق بالإيقاع الناجح لهذه الأفعال ، وقد حافظ سيرل على هذا القسم من أقسام الفعل عند أوستن[١] .

تخلى سيرل عن (الحكميات والعرضيات) في تصنيف أوستن ، ويبدو أنَّه وضع عدداً محدداً من الأغراض المقصودة بالقول لتكون أغراضاً أساسية لكنَّها تنضوي على أغراض ثانوية فرعية يشتمل عليها الفعل الأساسي مع اختلاف في درجة القوة ونمط الانجاز ، فضلاً عن تنبه سيرل على الفعل الانجازي المباشر والانجازي غير المباشر مما فتح الباب لاحقاً لغيره من اللغويين بالقول بفكرة الاستلزام الحواري .

ولما كان البحث قاصراً جهده على الطلبيات فإنَّني سأقف عندها ثانية لكن بشيء من التفصيل .

التوجيهيات (الطلبيات) :

تقدم القول بأنَّ التوجيهيات هي نوع من الأفعال الكلامية التي يستعملها المتكلم ليحمل المخاطب على عمل شيء ما[٢] يعمد المتكلم إلى استعمال هذا النمط من الأفعال حينما يكون الخطاب المرن غير مناسب للسياق ، فيهدر المتكلم جانباً من مبدأ التهذيب والتأدب في الخطاب– بحسب مقولة لايكوف[٣] – بعدول المتكلم إلى توظيف التوجيه الصريح في محاولة منه فرض قيد على المخاطب[٤] ؛ لذا سميت بالإستراتيجية الصريحة ، لخلوها من أدوات التلطف في الخطاب.

يرتكز التوجيه على أمور مهمة ، منها : سلطة المرسل إذ " يكون استعمال الإستراتيجية التوجيهية نابعاً من علاقة سلطوية بين طرفي الخطاب ، وتتفاوت هذه العلاقة من التباين الشديد إلى التقارب الملموس ، وتشكل عاملاً من عوامل نجاح الإستراتيجية التوجيهية "[٥] . كذلك يرتكز الخطاب التوجيهي على جهة المنفعة منه إذ قد تكون المنفعة باتجاه المرسل وبلحاظ سلطته فإنَّ التوجيه سيكون واجباً على متلقيه ، على حين إن كانت المنفعة باتجاه المخاطب فإنَّ التوجيه سيكون مستحب الانجاز مندوب الإيقاع . وتنقسم التوجيهيات بحسب المخاطب على قسمين : عام ، وخاص أما العام فهو ما كان متلقيه متخيَّلاً غير حاضر للعيان عند إنتاج الخطاب ، ويتمثل بالخطابات التوجيهية العامة كالتوجيهات لرواد الأماكن العامة من مسابح وحدائق ومكتبات ومطارات ... الخ ، وتكون في الغالب مكتوبة أو مسجلة صوتياً ، ويعتمد هذا النمط من الخطاب على افتراضات أولية عن المخاطب فهو عاقل يحترم الأنظمة وما إلى ذلك . على حين يكون متلقي الخطاب الخاص مُعايناً ، وحاضراً في لحظة التكلم فيكون الخطاب موجهاً له دون سواه ، فهو سياق ضيق يلحظ السمات الشخصية للمخاطب والمعرفة المشتركة بين طرفي الخطاب[٦] .

---

١ – ينظر نظرية أفعال الكلام ، أوستن ، ترجمة : عبد القادر قينيني : ١٧٤ ، وآفاق جديدة في البحث النحوي المعاصر : ٥٠ ، و الإنشاء في العربية : ٥٠٧ – ٥٠٨ ، و التداولية من أوستن إلى غوفمان : ٦٢ ، و نظرية الحدث الكلامي من أوستن إلى سيرل : ٥٧ – ٥٩، و نظرية الأفعال الكلامية في البلاغة العربية: ٤ ، و نظرية الفعل الكلامي بين التراث العربي والمناهج الحديثة دراسة تداولية : ٥٢ ، ونظرية الأفعال الكلامية في ظل جهود أوستن : ١١١.

٢ – ينظر التداولية (جورج يول) : ٩٠

٣ ـ ينظر الاستلزام الحواري : ١١٨

٤ – ينظر استراتيجيات الخطاب : ٣٢٢

٥ – استراتيجيات الخطاب : ٣٢٥

٦ – ينظر استراتيجيات الخطاب : ٣٢٤

الأساليب اللغوية للتوجيهات :

شُغل الباحثون بأشكال الخطاب التوجيهي ، فقد حصرها باخ بالطلبيات ، والأسئلة ، والمتطلبات ، والتحريمات ، وأفعال النصح ، على حين ذهب بعضهم إلى جعلها على قسمين : توجيهيات نفسية وهي توجيهيات تتأسس على الحالة الانفعالية للمتكلم في محاولة للتأثير بمتلقيه تتمثل بالعتاب والطمأنة[١] ، وتوجيهيات طلبية وهي توجيهات صادرة عن المتكلم لمتلقيه خلو من الانفعال والشعور كالأمر والنهي والنداء والاستفهام [٢] .

التوجيه الإلزامي :

١- الأمر :

وهو طلب إيقاع فعل على جهة الاستعلاء ، قال السكاكي : " ولا شبهة في أنَّ طلب المتصور على سبيل الاستعلاء يورث إيجاب الإتيان به على المطلوب منه ثم إذا كان الاستعلاء ممن هو أعلى رتبة من المأمور استتبع إيجابه وجوب الفعل بحسب جهات مختلفة وإلا لم يستتبعه فإذا صادفت هذه أصل الاستعمال بالشرط المذكور أفادت الوجوب وإلا لم تفد غير الطلب ثم إنَّها حينئذ تولد بحسب قرائن الأحوال ما ناسب المقام إن استعملت على سبيل التضرع كقولنا : اللهم اغفر وارحم ولدت الدعاء، وإن استعملت على سبيل التلطف كقول كل أحد لمن يساويه في المرتبة : افعل بدون الاستعلاء ولدت السؤال والالتماس "[٣] .

يشف نص السكاكي هذا عن ضرورة اشتمال الأمر الحقيقي على معنى الاستعلاء ، لكن يُترخص فيه عند خروج الصيغة الأمرية إلى معانٍ لا تتطلب معنى الإلزام ، فإنَّ الصيغة الأمرية تمثل العمل اللغوي على حين يمثل الإلزام من عدمه الفعل التأثيري ، فما هو بعمل لغوي بقدر ما هو من مستتبعات الأمر[٤] ، وتنحصر الصيغ الأمرية في اللغة العربية بصيغتي : (افعل) و (ليفعل) فضلاً عن المصدر واسم الفعل الجامد مثل (صه ، ومه ،وإيه ...الخ)[٥]، ولمَّا كانت كل هذه الصيغ تدل على طلب الحصول في الخارج فهي أعمال توجيهية سواء أ كانت تتضمن استعلاء أم لا .

وحينما تفقد الصيغ الأمرية شرط الاستعلاء فإنَّها تخرج إلى معانٍ توجيهية أخرى كالتمني والدعاء والتضرع ...الخ ، وهذه معانٍ توجيهية غير إلزامية .

٢- النهي :

قال السكاكي : " والنهي محذو به حذو الأمر في أنَّ أصل استعمال لا تفعل أن يكون على سبيل الاستعلاء بالشرط المذكور فإن صادف ذلك أفاد الوجوب وإلا أفاد طلب الترك فحسب، ثم إن استعمل على سبيل التضرع

---

[١] – ينظر الأفعال الانجازية (الصراف) : ٢١٦

[٢] – ينظر استراتيجيات الخطاب : ٣٣٧

[٣] – مفتاح العلوم : ٣١٨ – ٣١٩

[٤] – ينظر دائرة الأعمال اللغوية مراجعات ومقترحات : ٢٠٤ ، وفي نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات : ٣٨

[٥] – ينظر مفتاح العلوم : ٣١٨ ، و أساليب الطلب عند النحاة : ١١٣ – ٢٠٦ ،و الإنشاء في العربية : ١٣٢ ، والاستلزام الحواري : ٣٥ .

كقول المبتهل إلى الله : لا تكلني إلى نفسي سمي دعاء، وإن استعمل في حق المساوي الرتبة لا على سبيل الاستعلاء سمي التماساً "[1] .

وللنهي صيغة رئيسة يُعبر عنه بها وهي (لا تفعلْ) لكن قد يتحقق النهي بالإخبار أيضاً[2] كما في قوله تعالى : (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ)[3].

وذهب سيبويه إلى أنَّ " (لا تضرب) نفي لقوله : (اضرب) "[4]. ويجري النهي مجرى الأمر في اشتراطه الاستعلاء والوجوب لتحقق التوجيه الإلزامي (وجوب ترك الفعل) أما إذا فقد شرط الاستعلاء فيكون معناه طلب الترك فقط من دون إلزام فينتج عنه فعل تأثيري غير ملزم كالدعاء والنصح[5] .

٣. التوجيه بالإغراء والتحذير :

التحذير هو " تنبيه المخاطب على أمر مكروه ليتجنبه"[6] ، وبخلافه الإغراء فهو " تنبيه المخاطب على أمر محمود ليفعله"[7] ، لكنَّهما يشتركان في طلب المرسل (المحذِّر و المغرِي) والمرسل إليه (المحذَّر والمغرى منه) والمحذَّر منه والمغرى به[8]، ويتحقق التحذير (بإيَّا) وأخواته من الأسماء المضافة إلى كاف الخطاب نحو : رأسك ، ونفسك وغيرها وغيرها معطوفة على المحذر منه نحو : (إيَّاك والشرَّ) ، و(رأسَك والجدارَ) أو بتكرارها نحو : (إيَّاك إيَّاك المراءَ) أو من دون عطف أو تكرار نحو (إيَّاك الأسدَ) على خلاف و(إيَّاك من الأسدِ)[9] ، وقد يذكر المحذَّر منه وحده منصوباً بفعل محذوف كقولهم : (النارَ) أي احذر النارَ ، و بتكرارها (النارَ النارَ) أو بعطفها كقولهم : (النارَ والحرارةَ) أي احذر النار واتقِ الحرارة[10] .

أما الإغراء فيتحقق بتكرير المغرى به كقولهم : (أخاك أخاك) أي الزم أخاك ، وبعطفه كقولهم : (المروءةَ والنجدةَ) [11] ولا يتوهم السامع معنى التحذير لأنَّ " الكفاءة التداولية هي الفيصل في تحديد قصد المرسل في كلا الخطابين"[12] ، وقد أدرجنا هذين الشكلين من التوجيه ضمن التوجيه الالزامي لتقدير فعل أمر محذوف فيهما .

التوجيه غير الإلزامي :

١. التوجيه الاستفهامي :

---

[1] – مفتاح العلوم : ٣٢٠

[2] – ينظر أساليب الطلب عند النحاة : ٤٣٨

[3] – البقرة : ٨٣

[4] – ينظر كتاب سيبويه : ١ / ١٣٦

[5] – ينظر دائرة الأعمال اللغوية : ٢١١

[6] – شرح التصريح على التوضيح : ٢ / ٢٧٣

[7] – نفسه : ٢ / ٢٧٩

[8] – ينظر استراتيجيات الخطاب : ٣٥٥

[9] – ينظر شرح التصريح على التوضيح : ٢ / ٢٧٣ – ٢٧٨

[10] – ينظر استراتيجيات الخطاب : ٣٥٥

[11] – ينظر شرح التصريح على التوضيح : ٢ / ٢٧٩

[12] – استراتيجيات الخطاب : ٣٥٨

الاستفهام : هو طلب الفهم[١] ، وقيل : هو الاستخبار ، وقيل : الاستعلام ، وقد ذهب بعض النحويين إلى التسوية بين هذه المصطلحات ، على حين سعى بعضهم إلى الكشف عن أدنى فرق بينها ، قال عبد القاهر الجرجاني : " إنَّ الاستفهام : استخبار ، والاستخبار هو طلب من المخاطب أن يُخبرك"[٢] . " والفهم صورة ذهنية تتعلق أحياناً بمفرد : شخص أو شيء ، أو غيرهما ، وتتعلق أحياناً بنسبة ، أو حكم من الأحكام ، وسواء كانت النسبة قائمة على يقين أم على ظن ، أم على شك "[٣] . إذن فالاستفهام شكل من أشكال الطلب ، له دليل لفظي يدل عليه يتمثل بأدوات الاستفهام ، وفي الدرس التداولي يُعد الاستفهام من أفعال الكلام الانجازية ،سواء كان الاستفهام حقيقياً ، أم خارجاً عن معناه الحقيقي – طلب الفهم – إلى معانٍ مجازية أخرى .

ويُعد التوجيه الاستفهامي ذا قيمة خطابية كبيرة تتمثل في نوع الخطابة المشاجري ، إذ يستدعي إجابة من المخاطب ، فضلاً عن افتراضه وجود إجماع على المسؤول عنه[٤] .

الاستفهام المجازي :

لا يكون الاستفهام حقيقياً إلا إذا وافق لفظه معناه ، وهو طلب الفهم وانتظار الإجابة من المخاطب ، على حين أنَّ الاستفهام المجازي يسأل المتكلم عمَّا يعرفه ويفهمه ، قال ابن جني : " واعلم أنه ليس شيء يخرج عن بابه إلى غيره إلا لأمر قد كان وهو على بابه ملاحظاً له وعلى صَدَدٍ من الهجوم عليه ، وذلك أن المُستفهم عن الشيء قد يكون عارفاً به مع استفهامه في الظاهر عنه ، لكن غرضه في الاستفهام عنه أشياء . منها أن يرى المسئول أنَّه خفى عليه ليسمع جوابه عنه . ومنها أن يتعرف حال المسئول هل هو عارف بما السائل عارف به . ومنها أن يُرى الحاضر غيرهما أنه بصورة السائل المسترشد لما له في ذلك من الغرض ... و (لغير ذلك) من المعاني التي يسأل السائل عما يعرفه لأجلها وبسببها ، فلما كان السائل في جميع هذه الأحوال قد يسأل عمَّا هو عارفه أخذ بذلك طرفاً من الايجاب لا السؤال عن مجهول الحال "[٥] .

وقد أطلق البلاغيون على هذا الانزياح عن المعنى الحقيقي للاستفهام (تجاهل العارف) و (الاعنات)[٦] ، على حين اصطلح عليه التداوليون (الاستفهام البلاغي) وهو ما لا يحتاج فيه صاحبه إلى الإجابة لبداهتها ، فيحمل قيمة الخبر نفياً وإثباتاً إذ يتحول الاستخبار إلى خبر[٧] ، وأسماه بلونتين (الاستفهام الحجاجي) أو (السؤال الحجاجي)[٨] . ولا يصدق هذا الأمر على كل استفهام مجازي فقد يخرج الاستفهام إلى معنى طلبي آخر محافظاً على تصنيفه الإنشائي .

---

١ – ينظر مغني اللبيب : ١ / ١٩

٢ – دلائل الإعجاز : ٩٣

٣ – في النحو العربي نقد وتوجيه : ٢٦٤

٤ – ينظر في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات : ٣٨

٥ – الخصائص : ٤ / ٢٦٦ – ٢٦٧

٦ – ينظر أساليب الطلب عند النحاة و البلاغيين : ٤١٧

٧ – ينظر الخطاب والحجاج : ٥٧ ، والتداولية عند العلماء العرب : ١٦٣

٨ – ينظر الحجاج في القرآن الكريم : ٤٢٥

أما (الاستفهام الخبري) – على حد اصطلاح الأصوليين العرب عليه – فيخرج من حيز الأفعال التوجيهية أو الطلبية – بحسب اصطلاح التداوليين – إلى حيز الأفعال الإخبارية ، إذ يتحول الغرض حينئذٍ من طلب الفهم إلى نقل واقعة أو خبر للمتكلم يحتمل الصدق والكذب ، واتجاه المطابقة فيها من الكلمات إلى العالم[١] .

على حين يكون الغرض الانجازي من الطلبيات أو التوجيهيات هو توجيه المخاطب إلى فعل شيء ما واتجاه المطابقة فيها من العالم إلى الكلمات[٢] .

٢. التوجيه الندائي :

النداء " طلبُ إقبال المدعوِّ على الداعي بأحد حروف مخصوصة "[٣] ، وقد خصصت له حروف تسمه نحوياً ، وهي وهي (الياء ، والهمزة ، وأيا ، وهيا ، و وا)[٤] ، وليس للنداء محتوى قضوي سوى تنبيه المنادى لفعل لغوي آخر [٥] وقد وقد ألمح سيبويه إلى هذا بقوله : " المنادى مختصّ من بين أمته، لأمرك ونهيك أو خبرك "[٦] .

فيكون المحتوى القضوي أمراً أو نهياً أو خبراً وما النداء إلا تخصيص للمعني به[٧] .

٣. التوجيه بالتمني :

يدخل ضمن دائرة هذا نمط من التوجيه كل ما أفاد " طلب حصول شيء على سبيل المحبة "[٨] ولا يقتصر عندنا على التمني المتحصل من أدوات خاصة رصدها النحويون[٩] ، ويجري فيه حمل المخاطب على التعاطف مع المتكلم[١٠] .

ومن قبل قارب النحاة بين التمني والترجي[١١] ، قال ابن يعيش : " كل واحد منهما مطلوب الحصول مع الشك فيه ، والفرق بينهما أنَّ الترجي توقع أمرٍ مشكوك فيه أو مظنون والتمني طلب أمرٍ موهوم الحصول وربما كان مستحيل الحصول "[١٢] .

ومذهب البحث أنَّ هناك بعض المعاني التوجيهية التي تدخل في حيز التوجيه بالتمني كالدعاء والتضرع والتوسل والنصح ، التي تتحقق بانزياح صيغها الطلبية الإلزامية (كالأمر ، والنهي) إلى معانٍ توجيهية غير إلزامية .

٤ . التوجيه بالتحضيض :

---

١ – ينظر آفاق جديدة في البحث النحوي المعاصر : ٧٩

٢ – ينظر نفسه : ٧٩

٣ – عروس الأفراح : ١ / ٤٧٤

٤ – ينظر أساليب الطلب عند النحاة و البلاغيين :٢٢١ – ٢٣٠

٥ – ينظر دائرة الأعمال اللغوية : ٢٠٩ ، واستراتيجيات الخطاب : ٣٦٠

٦ – كتاب سيبويه : ٢ / ٢٣١ – ٢٣٢

٧ – ينظر الإنشاء في العربية : ١٦٣

٨ ـ مختصر التفتازاني (ضمن شروح التلخيص) : ٢ / ٢٣٨

٩ – يتحصل التمني في العربية بـ(ليت) وقد تشبّه بها بعض الأدوات كـ(لو ، وألا ، وهل ، ولعل) . ينظر أساليب الطلب عند النحاة : ٥٣٠ – ٥٣٤ ، والإنشاء في العربية : ١٤٥ ، و في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات : ٣٨ .

١٠ – ينظر دائرة الأعمال اللغوية : ٢٠٠

١١ – يترشح الترجي في العربية بـ(لعل ، وعسى ، وحرى واخلولق) . ينظر أساليب الطلب عند النحاة : ٥٤٨ – ٥٨٦ .

١٢ – شرح المفصل : ٤ / ٥٧٠

العرض والتحضيض " طلب الشيء، لكن العرض طلبٌ بلينٍ، والتحضيض طلب بحثّ "[1] فالتحضيض أشد توكيداً[2] توكيداً[2] ، ويتحقق هذا التوجيه بأدوات لغوية مختصة بالفعل : (هلَّا ،و لولا ، و ألا ، ولوما ، و ألمْ ، وأمِا ، وهل)[3] وهل)[3] .

هذه الأساليب التوجيهية التي استقرت عليها أغلب الأدبيات التداولية اليوم التي لم يعزب عن أذهان النحاة واللغويين بحثها وبسط القول فيها كما بيَّنا ، وقد زاد عليها د. عبد الهادي الشهري شكلين آخرين، هما :

١- التوجيه المعجمي : إذ تتحقق الإستراتيجية التوجيهية ببعض الألفاظ فيكون المعجم رافداً من روافد التوجيه فألفاظ النصح والمناشدة والاقتراح والتوسل والوصية على اختلاف تصريفاتها تكسب النص معنى التوجيه .

٢- التوجيه بذكر العواقب :

إذ يلجأ إليه المرسل حينما يفتقر لسلطة الأمر والنهي فيوجه المخاطب بذكر عواقب فعله أو عدمه ، فضلاً عن الشواهد والأمثلة التي يسوقها تعزيزاً لوجهة نظره ، ومن قبيل ذلك التوجيه الذي يطلقه المعلن للترويج لسلعة ، أو للتحذير منها كقولهم : (التدخين من الأسباب الرئيسة المسببة للسرطان)[4].

المحور الثاني

الإستراتيجية التوجيهية في سورة مريم :

جرت العادة في تحليل الخطاب ورصد آلياته من خلال استقراء النص ثم تبويب الآليات وذكر مصاديقها من النص ، لكن يبدو لي أنَّ نصاً يتأسس على مجموعة حكايات قد لا تبلغنا الطريقة المذكورة سلفاً الهدف المنشود ؛ لذا آثرت دراسة النص بتفكيك بنيته إلى ثلاث حكايات رئيسة ، ونص تكميلي خطابه عام .

الحكايات هي : قصة زكريا (ع) الآيات [١-١٥] ، قصة مريم (ع) الآيات [١٦-٣٥] ، قصة إبراهيم (ع) الآيات [٤١-٥٠] والنص التكميلي يشتمل على الآيات [٥١ – ٩٨] فيها وصف عام للأنبياء ولأحوال الكافرين .

تهيمن الأفعال التوجيهية على بنية خطاب هذه السورة ، ودونك رصد لها :

يشتمل النص على ستة وأربعين فعلاً توجيهياً ، توزعت على النحو الآتي :

الأمر : (٢١) فعلاً ، الاستفهام : (١٠) أفعال ،النداء : (٩) أفعال ، النهي : (٤) أفعال ،التمني : فعل واحد ، الترجي : فعل واحد .

تركز حضور الأفعال التوجيهية في السياق القصصي : الآيات (١ – ٥٠) إذ ورد فيها خمسة وثلاثون فعلاً من أصل ستة وأربعين في السورة برمتها .

في قصة زكريا (ع) :

---

[1] – مغني اللبيب : ١ / ٨٢

[2] – ينظر الجنى الداني : ٣٨٢

[3] – ينظر أساليب الطلب عند النحاة : ٤٩٦ – ٥٠٩ .

[4] – ينظر استراتيجيات الخطاب : ٣٦٠ – ٣٦٢

قال تعالى : (ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦) يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (٧) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩) قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (١٠) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (١١) يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢) وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (١٣) وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا (١٤) وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (١٥))[١] .

تبدأ قصة زكريا (ع) في هذه السورة بفعل إخباري والتقدير (هذا ذكر رحمة ربك زكريا) بجعل (ذكر) خبر لمبتدأ محذوف تقديره (هو)[٢] ، وقيل : تقديره (فيما يتلى ذكر)[٣] ثم يتلوه إخبار عن نداء زكريا (ع) نص دعائه (قال : ربِّ ...) والتقدير : (يا ربي) والسؤال الذي يطرح نفسه هو : هل يعد هذا التعبير فعلاً توجيهياً أم لا ؟

هو فعل إخباري يتضمن حكاية فعل توجيهي فالآية تنبئ عن مناداة زكريا لربِّه في زمن سابق لزمن الإخبار عن الحدث ثم يجري الالتفات من زمن الإخبار إلى زمن الحدث يعزز هذا تحول الضمير العائد على زكريا من ضمير الغيبة المستتر في (نادى ، وقال) والظاهر في (ربّه) إلى ضمير تكلم في (ربِّي ، إني ،مني ...) .

وما يلفت الانتباه في هذا الفعل (الإخباري) الثنائية التقابلية (نداء / خفيا) فالنداء هو ارتفاع الصوت ، أما الخفاء فهو ضد الظهور والوضوح ، فكيف لارتفاع الصوت ألَّا يكون ظاهراً !

لم يعزب عن أذهان المفسرين النظر في هذه المفارقة فقيل : " يطلق النداء كثيراً على الكلام الذي فيه طلب إقبال الذات لعمل أو إقبال الذهن لوعي كلام (...) ويطلق على الدعاء بطلب حاجة وإن لم يكن فيه نداء لأنَّ شأن الدعاء في المتعارف أن لا يكون جهراً . أي تضرعاً لأنَّه أوقع في نفس المدعو . ومعنى الكلام : أنَّ زكريا قال : يا رب ، بصوت خفي . وإنَّما كان خفياً لأنَّ زكريا رأى أنَّه أدخل في الإخلاص (...) ولا منافاة بين كونه نداء وكونه خفياً ، لأنَّه نداء من يسمع الخفاء"[٤]. فيرى ابن عاشور أنَّ مفارقة (نداء / خفي) في سياق كهذا مغتفرة ؛ لأنَّ المنادى يسمع الخفاء .

يتأسس الحجاج التواصلي[٥] في قصة زكريا (ع) على مجموعة من الأفعال الطلبية في مجملها : (أمر (الدعاء) ، و النداء، والاستفهام ، و النداء ، و أمر) .

١- الدعاء :

---

١ – مريم : ١ – ١٥

٢ – ينظر ابن كثير : ٥ / ٢١١ ، والتحرير والتنوير : ١٦ / ٦١

٣ – ينظر البحر المحيط : ٦ / ١٦٢

٤ – التحرير والتنوير : ١٦ / ٦٢ ، وينظر تفسير ابن كثير : ٥ / ٢١١

٥ – ويراد به التفاعل الخطابي بين طرفي الخطاب فيأخذ المتكلم مكانه في حين ويفكر بطريقة المخاطب في حين آخر وكذلك المخاطب ، فيؤدي هذا التفاعل إلى التفاهم والتواصل للوصول إلى أهداف مشتركة . ينظر التواصل والحجاج : ١٧

يرتكز الفعل الطلبي (الدعاء) المتمثل في قوله تعالى : **(فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آَلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا)** . على أربع مقدمات سبقته ، تمثل آليات منطقية وظفت في الخطاب بغية التأثير والإقناع ، وهي :

أ – (إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا) .

ب – (وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا) .

ج – (وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي) .

د – (وكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا) .

تنشطر مسوغات زكريا(ع) على شطرين : الأول مسوغات خاصة بالمتكلم (زكريا) وهما المسوغان (أ ، د)، والثاني مسوغات مشتركة بين المخاطب (الله جلَّ جلاله) والمتكلم (زكريا) وهما المسوغان (ب ، ج) ، وإن كان كبر سنه وعقر امرأته أمور تخص زكريا دون سواه فإنَّ خوفه من عصبته وقومه على ميراث النبوة يخص المتكلم والمخاطب فالنبوة هبة المولى (جلَّ وعلا) ورسالته لزكريا (ع) وهي وما بعدها تمهيد للمقصود من الدعاء " ... وإنّما كان ذلك تمهيداً لما يتضمنه من اضطراره لسؤال الولد . والله يجيب المضطر إذا دعاه ، فليس سؤاله الولدَ سؤال توسع لمجرد تمتع أو فخر . ووصَف من حاله ما تشتد معه الحاجة إلى الولد حالاً ومئالاً ، فكان وهن العظم وعموم الشيب حالاً مقتضياً للاستعانة بالولد "[1] . على حين يكون المسوغ (ب) مسوغاً مشتركاً بين المتكلم والمخاطب أيضاً ، لكنَّه يمثل طلباً غير مباشر قال ابن عاشور : " ومثل هذا التركيب جرى في كلامهم مجرى المثل في حصول السعادة من شيء ... وهذا تمهيد للإجابة من طريق غير طريق التمهيد الذي في الجمل المصاحبة له بل هو بطريق الحث على استمرار جميل صنع الله معه ، وتوسلٌ إليه بما سلف له معه من الاستجابة "[2] . بمعنى : " لم أعهد منك إلا الإجابة في الدعاء ولم تردني قط فيما سألتك "[3] . يشتمل هذا المسوغ على طلب غير مباشر ولا يفهم إلا بعد تأوله ، وقد اصطلح (جرايس) على هذا النمط من الحجاج (التعاون الحواري) وأطلق عليه (سيرل) (إستراتيجية الاستنتاج)[4] ، ففي قول أحدهم : (لم تردني يوماً خائباً) هو لا يريد الإخبار عن ذلك بل يريد أن يدفع صاحبه إلى الإجابة والإكرام ثانية، فيكون كلامه متضمناً لفعل انجازي غير مباشر الباعث عليه وهو الاستحياء أو التأدب بالحديث على حد قول (سيرل)[5] ،وقد وُظِفت هذه الإستراتيجية نفسها في التعبير عن دعاء زكريا (ع) في سورة آل عمران إذ جاء فيها : **(هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ)**[6].

تشتمل حكاية زكريا على فعل دعائي ثانٍ ، لكنَّه يأتي بعد فعلين إنجازيين مغايرين ؛ لذا سنرجئ الحديث فيه بعدهما امتثالاً لحاكمية النص .

٢– النداء :

---

[1] – التحرير والتنوير : ١٦ / ٦٣

[2] – التحرير والتنوير : ١٦ / ٦٥ – ٦٦

[3] – تفسير ابن كثير : ٥ / ٢١٢

[4] – ينظر آفاق جديدة في البحث النحوي المعاصر : ٥١

[5] – نفسه : ٥١

[6] – آل عمران : ٣٨

قال تعالى : **(يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا)**[1] .

يأتي الرد على طلب زكريا مسبوقاً بفعل النداء الذي يراد منه لفت الانتباه للفعل الانجازي اللاحق (إنا نبشرك ...) الإخباري في استجابة من المولى عزَّ وجلَّ لدعاء زكريا (ع) .

٣- الاستفهام :

قال تعالى : **(قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا)**[2] .

ارتكز هذا الاستفهام على مقدمتين سبق لزكريا (ع) أن تذرع بهما في طلب الولي وهما المسوغان الخاصان به اللذان تقدم ذكرهما : كبر سنه ، وعقر امرأته أعاد الاحتجاج بهما للتعجب من تحقق طلبه ، وقد استغرب المفسرون هذه المفارقة (الدعاء / التعجب من الاستجابة) ، فقيل : " يجوز أن يكون قد ظن الله يهب له ولداً من امرأة أخرى بأن يأذنه بتزوج امرأة غير عاقر "[3] ، وقيل : وإنما طلب ولياً وليس ولداً فلعله يكون ابن عم أو ابن أخ[4] ، فيكون الاستفهام خارجاً عن معناه الحقيقي طلب الفهم والإجابة إلى معنى التعجب ، على حين ذهب بعضهم إلى جعل الاستفهام هاهنا استفهاماً حقيقياً ، قال ابن عرفة : " أن يكون بين طلبه وبين التبشير به زمن مطاول بحيث تزايد ضعفه وتمكنت شيخوخته"[5] وهذا محجوج بقوله تعالى : **(فَنَادَتْهُ الملائكة وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي المحراب أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بيحيى)**[6] ، وهذا يعني أنَّ التبشير جرى بعد مدة قصيرة[7] بدلالة الفاء على التعقيب[8] ، وقال ابن عرفة أيضاً أيضاً :" إنَّه سأل عن الكيفية ... هل مرجوع امرأته شابة أو تلد على ذلك الحال "[9] . فيكون قد استفهم عن زمن الميلاد ، أو استفهم عن كيفيته ، وكلاهما استفهام حقيقي .

ويبدو لي أنَّ تأويل الاستفهام بالتعجب أدق ، بدلالة الآية اللاحقة وأفضل ما قيل في توجيه التعجب هو قول بعضهم : " (أنى) استفهام مستعمل في التعجب ، والتعجب مكني به عن الشكر ، فهو اعتراف بأنَّها عطية عزيزة غير مألوفة لأنّه لا يجوز أن يسأل الله أن يهب له ولداً ثمّ يتعجب من استجابة الله له"[10] .

وعند تحليل معنى التعجب الذي خرج له الاستفهام نجد أنفسنا أمام تأويلين : الأول أن يكون زكريا تعجب حقيقة من الاستجابة ، وأحسب أنَّ هذا الوجه مستبعد لأنَّ زكريا واثق من رحمة ربه بدليل قوله تعالى على لسانه : **(وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا)** إذن هو لا يستبعد الاستجابة ليتعجب من تحققها .

أما الثاني فهو أنَّ خروج الاستفهام إلى معنى التعجب لا يؤدي استفهاماً خالصاً ولا يؤدي تعجباً خالصاً بل ما ينتج من انصهارهما في تعبير واحد فهو تعجب مشوب بفرح وامتنان دفع به للسؤال عن الكيفية بسبب من كبر سنه وعقر

---

[1] - مريم : ٧

[2] – مريم : ٨

[3] – التحرير والتنوير : ١٦ / ٧٠

[4] – ينظر تفسير ابن عرفة : ٣ / ١١٠

[5] – تفسير ابن عرفة : ٣ / ١١٠

[6] – آل عمران : ٣٩

[7] – ينظر البحر المحيط : ٦ / ٢١٧

[8] – ينظر الجنى الداني : ٦١

[9] – تفسير ابن عرفة : ٣ / ١١٠

[10] – التحرير والتنوير : ١٦ / ٧٠ ، وينظر تفسير ابن كثير : ٥ / ٢١٤

امرأته ، لكن حتى هذا رُدَّ بحجة **(قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ)** بل لحقتها حجة مفحمة لزكريا **(وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا)** ، إنَّ هذه الحجج تصلح للرد على كلام زكريا وكلام سواه فكانت الحجة الأولى رداً على قول مريم (ع) حين لاقت رسول ربها **(قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ)** ، وتصلح ردَّاً لكل متسائل سواء كان مشككاً أم متعجباً ، ومنه ما قيل لمنكري البعث[1] .

ثم يتحول زكريا بعد هذه الحجة إلى الدعاء ثانية ، قال تعالى على لسانه : (قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا)[2] ، إنَّ مفارقة (طلب آية / أمر بالصمت) تدفعنا إلى القول بأنَّ زكريا مازال يحاجج ؛ لذا قال قال بعض المفسرين : إنَّه عوقب بالصمت " أمسك لسانه عن الكلام عقوبة له لسؤاله الآية بعد مشافهة الملائكة إياه فلم يقدر على الكلام ثلاثة أيام "[3] ، وقيل : طلبها ليطمئن بها قلبه، " وليس هذا شكاً في خبر الله، وإنَّما هو، كما قال الخليل (ع): (**رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي**)[4] فطلب زيادة العلم، والوصول إلى عين اليقين بعد علم اليقين،"[5] .

٤- النداء :

قال تعالى : **(يَا يَحْيَى)** بهذا الفعل الطلبي تبدأ حكاية يحيى المندرجة ضمن الحكاية الإطارية (حكاية زكريا) ، ويتصدر خطابها فعل النداء إيذاناً بتحول الخطاب إلى يحيى ولفت انتباهه إلى رسالته . وخص يحيى (ع) بالكلام الذي سيأتي بعد التنبيه لجعله معنياً به دون غيره .

٥- الأمر :

قال تعالى : **(خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا)**

في الآية انتقال من البشارة بيحيى إلى نبوته[6] فحذفت بينهما جملة أحداث ، ما تعلق منها بولادته ونشأته ، ويستدل على هذا الحذف بالفجوة الزمنية بين زمن البشارة وزمن النبوة[7] . ويتصدر فعل الأمر هذه الآية (خذ الكتاب) للتصريح بفعل التكليف بالنبوة ، وهو أمر صريح ومباشر ، أما قوله تعالى : (بقوة) الذي فُسِّر بجد أو بثبات وعزيمة[8] قد يحسبه أحد بأنَّ حال الأخذ وصف بهذا الوصف نظراً لحداثة سن يحيى (ع) ولا أرى ذلك دقيقاً إذ اقترن اقترن فعل أخذ الكتب السماوية بالوصف (بقوة) غيرة مرة في القرآن الكريم ومن قبيله قوله تعالى : **(وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ)**[9] .

---

[1] – ينظر الآية (٦٧) من سورة مريم .

[2] – مريم : ١٠

[3] – تفسير البغوي : ٢ / ٣٦

[4] – البقرة : ٢٦٠

[5] – تفسير السعدي : ٥٧٠

[6] – ينظر التحرير والتنوير : ١٦ / ٧٥

[7] – ينظر خطاب الحكاية : ١٠٩

[8] – ينظر التحرير والتنوير : ١٦ / ٧٥

[9] – الأعراف :١٤٥

في قصة مريم (ع)

قال تعالى : (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (٢١) فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا (٢٣) فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (٢٦) فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣) ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٣٥) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٣٦) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧) أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٩) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ)[١].

يتحول النص القرآني في هذه الآيات إلى حكاية ثانية غير منقطعة الصلة عن الحكاية الأولى إذ ترتبط معها من حيث المغزى فكلاهما تُنبئ عن ميلاد معجز الأولى ميلاد يحيى عن أم عاقر والثانية ميلاد عيسى عن أم باكر ؛ لذا جاء الجواب على تعجب زكريا وتعجب مريم من هذا الميلاد بقوله تعالى : **(قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ)** . ومن ثمَّ الأمر بالصمت . لكن ما يلفت الانتباه هو الرد على زكريا بحجة قاسية جعلت المفسرين يتوهمون العقوبة لزكريا بالصمت وهو قد تعجب تعجب فرح على حين ردَّ على مريم حين تعجبت تعجب استبعاد ورفض – تتمة للآية المذكورة – بقوله : **(وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا)** وكأنَّها رسالة طمأنة لها . فالسؤال الذي يبادرنا لماذا كان الرد على زكريا يتوهم فيه النهر على حين أنَّ الرد على مريم فيه طمأنة واضحة ؟

أحسب أنَّ الجواب يكمن في أنَّ الميلاد الأول كان بطلب من زكريا ، على حين أنَّ الميلاد الثاني جاء بأمر من الله جلَّ وعلا فكانت الطمأنة لدعم مريم ومؤازرتها في مهمتها المقبلة .

تشتمل حكاية مريم على ثلاثة مشاهد ونص تكميلي ، وهي : المشهد الأول (مريم و الملك الصالح) الآيات (١٦ – ٢١) المشهد الثاني (مريم والمخاض) الآيات (٢١ – ٢٦) ، المشهد الثالث (مريم وقومها) الآيات (٢٧ – ٣٣) ، أما النص التكميلي فيتمثل بالآيات (٣٤ – ٤٠) .

المشهد الأول : (مريم والملك الصالح) يتضمن فعلاً توجيهياً واحداً ، وهو (الاستفهام) :

ويبدأ المشهد بذكر مريم وحالها وهي تحتجب عن أهلها بمكان بعيد عنهم مما هيأ لها فضاء مناسباً للقاء رسول ربّها ، يبدأ مشهد الحجاج بين مريم ورسول ربِّها من لحظة استشعار مريم الخوف منه بقولها : **(إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ**

---

[١] – سورة مريم : ١٦ – ٣٩

إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا) تفصح مريم عن استجارتها بالله منه ثم تقرنها بـ(إن كنت تقياً) وحَمْل التركيب الشرطي هاهنا على أنَّه لا يتحقق جواب الشرط إلا بتحقق فعله ليس بسليم فيكون المعنى : (إن كنت تقياً فإني أعوذ بالله منك) بمعنى إن لم يكن تقياً لا تستجير بالله منه ، ولا أحسبها أرادت ذلك فالاستعاذة بالرحمن حاصلة أيَّاً كان حال المخاطب ، لكنَّ قولها : (إن كنت تقياً) يشتمل على معنى مستلزم فهي لم ترد الشرط بل أرادت تذكيره ووعظه واستثارة التقوى في نفسه[١] فتأسست حجتها في الدفع عن نفسها على الوعظ والتذكير بتقوى الله ، فيتلقفها الملك الصالح حجةً له إذ يأتي ردُّ الملك الصالح مؤسساً على فعلين تقريريين : الأول (أنا رسول ربكِ) ففي الوقت الذي استعاذت بالرحمن منه أخبرها بأنَّه رسوله ، والثاني (لأهب لك ...) فكان الأول بمثابة مقدمة للثاني ، لكنَّ روع مريم لم يسكن ، فردَّت محاججة (أنَّى يكون لي غلام ...) موظفة الاستفهام الحجاجي بسؤالها عن الكيفية وهو استفهام استبعاد وتعجب[٢] ، محتجة بمقدمتين قد يبدوان مترادفتين للوهلة الأولى :

١- لم يمسسني[٣] بشر .

٢- ولم أك بغيا .

تحيل المقدمة الأولى على نفيها الزواج ببشر من قبل ، وتحيل الثانية على نفي الفجور عنها[٤] – أجلها الله– بالعطف بينهما بالرابط الحجاجي (الواو) الدال على مطلق الجمع بين المتعاطفين[٥] ، أما النفي فقد تخيَّر له الاستعمال القرآني (لم) الدالة على نفي الحدث في الماضي المطلق[٦] ،يعد الاستفهام في هذا المشهد بوصفه حجة عنصراً بؤرياً يتأسس عليه كل ما بعده فهو جوهر قصة مريم (ع) بمفارقتها العجائبية (العذرية / الحمل) ، بل يتأسس عليه مغزى القصة بل مغزى السورة المباركة كلها ، الذي يأتي الكشف عنه برد الملك الصالح على استفهامها : **(قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّك هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ)** ثم عطف مُطَمْئناً **(وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا)** ثم يقطع الحجاج وينتهي الحوار بينهما بل ينتهي المشهد الأول كله بقوله تعالى : **(وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا)** فالحمل واقع ولا نفع من الحجاج بعد .

المشهد الثاني : (مريم والمخاض) يتضمن ثمانية أفعال توجيهية : تمنٍ ، ونداء ، ونهي ، وخمسة أفعال أمرية .

---

١ – ينظر التحرير والتنوير : ١٦ / ٨١ ، و التصوير الفني في القرآن الكريم : ١٥١ .

٢ – ينظر التحرير والتنوير : ١٦ / ٨٢

٣ – قال ابن منظور : ((مَسِسْتُ الشيءَ أَمَسُّه مَسّاً لَمَسْتَه بيدك ثم استعير للأَخذ والضرب لأَنهما باليد واستعير للجماع لأَنه لَمْسٌ وللجُنون كأَن الجن مَسَّتْه يقال به مَسٌّ من جنون وقوله تعالى : (ولم يَمْسَسْني بَشَرٌ) أَي لم يَمْسَسْني على جهة تزوُّجٍ (ولم أَكُ بغيّاً) أَي ولا قُرِبْتُ على غير حد التزوُّج)) . ينظر لسان العرب : ٦ / ٢١٨ (مسس) ، وجرى استعمال لفظي المس ، واللمس كناية عن النكاح الحلال في القرآن الكريم غير مرة ، كقوله تعالى : (لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ ... وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ...) . [البقرة:٢٣٦ – ٢٣٧] ، وكذا الآية (٤٩) من سورة الأحزاب . أما الزنا فلا يعبر عنه بالمس أو اللمس بل بالفجور ، فيقال : فجر بها ، وخبث بها ، وما شابه ذلك . ينظر الكشاف : ٦٤٣ .

٤ – ينظر التحرير والتنوير : ١٦ / ٨٢ ، ومعاني القرآن (الزجاج) : ٣ / ٣٢٣

٥ – ينظر مغني اللبيب : ٢ / ٤٠٨

٦ – ينظر الجنى الداني : ٢٦٧ ، واللغة العربية معناها ومبناها : ٢٤٧

يهيمن الرابط الحجاجي (الفاء)[1] بين سلسلة الأفعال اللغوية الموجودة في هذا المشهد : (فحملته ، فأجاءها ،فناداها (وهزي) ، فكلي (وشربي ، وقري)، فإما ترين ، فقولي) ، الناظر لأحداث المشهد يحسبها مجموعة من الأحداث المتتالية من دون مهلة زمنية – بدلالة الفاء – ويستقيم هذا الفهم لولا حدث المخاض ، فالفعل (حملته) حادث في أثناء الحوار مع الملك ، وعليه فالفاء معه منسجمة معه لكن الفعل (فأجاءها المخاض) يستوقف متلقي النص بالتساؤل أليس هناك مدة زمنية بين الفعلين (حملته) و(أجاءها) وهي مدة الحمل الواجب تحققها قبل فعل المخاض ، أين التعقيب هاهنا ؟

يبدو أنَّ توظيف الفاء هنا جيء به لترتيب[2] معنى الأحداث الرئيسة مع الإبقاء على الإحساس بتقاربها لما فيه من الإثارة والإدهاش بتصاعد الأحداث بشكل متتالٍ على مستوى السرد .

تتأسس أفعال هذا المشهد على فعل المخاض الذي ينتج عنه الفعل التوجيهي الرئيس فيه وهو (التمني) مسبوقاً بنداء دال على الجزع[3] بقول مريم : **(يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا)** تطبق قبضة اليأس على قلب مريم فتتمنى الموت قبل هذا الحدث بل قبله بكثير لتستحيل منسية ، تمني مريم تمنٍ عجائبي هو الآخر – كحملها – فهي لم تتمنَ الموت الآن – فلن يغني الموت الآن عن الفضيحة – بل ودَّت لو تكون ماتت منذ زمن ، وبمنطق الزمن هذا ماضٍ خيالي ، فلن يتحقق إلا بفعل عجائبي كفعل الحمل ؛ بل هو حوار داخلي يكون فيه طرفا الخطاب الشخص نفسه ، والتمني قائم على أساس التحسر الناتج عن العجز[4]، لكن هذا التمني يثير فعلاً توجيهياً جديداً بفعل الاشفاق الاشفاق عليها[5]، ودخول شخصية جديدة في القصة لكسر طوق المونولوج ، فيحاورها بفعل توجهي **(فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا)** في قوله : (من تحتها) بيان لهوية المنادي (الوليد) ، لم يأتِ النداء بصيغته المعهودة (حرف نداء + منادى) بل جاء بصيغة الإخبار عن النداء وهو فعل توجهي غير صريح[6] ،لكن النص القرآني سكت عن نص النداء ، هل قال لها : يا مريم ، أم قال يا أماه ؟ وهذا ما أوقع المفسرين بالخلاف في عائدية الضمير في (ناداها) على جبريل (ع) أم على عيسى (ع)[7] بل قرأ بعضهم (خاطبها)[8] بحذف النداء وليس بإضمار لفظه، ولا يعد النداء فعلاً تأثيرياً

---

[1] – يكاد يُجمع النحاة على دلالة الفاء على التعقيب وترتيب المتعاطفين بها من دون مهلة زمنية . ينظر الجنى الداني : ٦١ ، وحاشية الخضري : ٢ / ١٤٥ ، وغيرهم .

[2] – ينظر مغني اللبيب : ١ / ١٨٣ .

[3] – ينظر أساليب الطلب : ٣٠١ .

[4] – ينظر دائرة الأعمال اللغوية : ٢٠٠

[5] – فالتمني بوصفه فعلاً لغوياً يضمن التحسر من قبل المتكلم على امتناع المضمون القضوي للفعل ، وإشفاق المخاطب على المتكلم والتعاطف معه . ينظر دائرة الأعمال اللغوية : ٢٠٠

[6] – ينظر الاستلزام الحواري : ١٢٦

[7] – اختلف المفسرون في هوية المنادي لمريم فقيل : جبريل (ع) فيكون الضمير في (ناداها) عائد على قوله تعالى : (أنا رسول ربك) ، وقيل : هو عيسى (ع) فيكون الضمير عائد على ماعاد عليه الضمير في (فحملته) وهو الغلام . وأحسب أن الثاني أولى بدليل ما نقله الرازي : " ... وهو دليل الحسن بن علي (ع) أن عيسى (ع) لو لم يكن كلمها لما علمت أنه ينطق فما كانت تشير إلى عيسى (ع) بالكلام ، فأما من قال المنادي هو عيسى (ع) فالمعنى أنه تعالى أنطقه لها حين وضعته تطييباً لقلبها وإزالة للوحشة عنها حتى تشاهد في أول الأمر ما بشرها به جبريل (ع) من علو شأن ذلك الولد " . تفسير الرازي : ٢١ / ٢٠٥ .

[8] – قرأ علقمة وزر بن حبيش (فخاطبها) ، ينظر المحرر الوجيز : ١٢٢٤

بل هو فعل تنبيهي القصد منه لفت انتباه المنادى لما سيأتي من فعل تمثل في هذا السياق بالنهي الموجه لمريم (ع) في قوله تعالى : **(أَلَّا[1] تَحْزَنِي)** فالنهي تأسس على تمني الموت ، وقد سُوِّغ النهي بقوله تعالى : **(قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا)**[2] .

بعد فعل النهي هذا تأتي سلسلة أفعال أمرية موجهة لمريم (ع) : (هزي ،كلي ، اشربي ، قرّي ، قولي)

استراتيجية التوجيه لا تتكشف في هذا المشهد من كثرة أفعاله ولا سيما الأمرية منها ، بل من شكل الحوار بين مريم ووليدها فترى أنَّ زمام القول بيد وليدها ولم تنطق مريم بشيء بل كانت منفذة لما يوجه إليها حتى يتكلل سكوتها بالأمر بالصمت **(فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا)** وكأن دورها قد انتهى عند حدث الولادة في القصة .

المشهد الثالث : (مريم في مواجهة قومها) ويتضمن ثلاثة أفعال توجيهية : فعلا نداء ، وفعل استفهام .

يبدأ هذا المشهد بقدوم مريم (ع) على قومها بمولودها فيتلقونها باللوم مسبوقاً بفعل النداء **(يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا)** ثم تكرر المعنى نفسه في قولهم : **(يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا)** . النص يبعث على السؤال : لو قالوا : لقد جئت شيئاً فرياً ، ما كان أبوك امرأ سوء ...) بحذف بنية النداء هل سينقص هذا من اهتمامها بكلامهم أو انتباهها إليهم ؟

إن كان الجواب : لا ، إذن ما جدوى النداء هاهنا ؟ وإن كانت الغاية من النداء لفت الانتباه فما جدوى تكراره بلفظ مغاير : (يا مريم ، يا أخت هارون) ؟

لمقاربة الإجابة عن هذه الأسئلة أرى أن أعرض المسألة على النحو الآتي :

١- لم يلتفت المفسرون لدلالة النداء (يا مريم) ، ولا إلى تكراره .

٢- شكلت بنية النداء الثانية (يا أخت هارون) علامة لافتة للمفسرين فتباينت آراؤهم في توجيه دلالتها[3] .

٣- المشهد برمته يخضع لدلالة العجب والدهشة المشوبة باللوم والعتب .

وظف الاستعمال القرآني جملة وسائل لغوية لاستشعار المتلقي للتعجب والدهشة اللذان هيمنا على حال قومها ، وهي :

١- النداء (يا مريم) الخارج عن معناه الحقيقي – لفت انتباه المخاطب – إلى معنى مجازي وهو التعجب من فعلها ومن عادة العرب إن أرادت أن تعظم أمراً من الأمور جعلته نداء[1] .

---

[1] – (أن) في (أن لا) تفسيرية بمعنى : (أي) . ينظر البحر المحيط : ٦ / ٢٢٨

[2] – ينظر التحرير والتنوير : ١٦ / ٨٧

[3] – ذهب المفسرون في (هارون) أربعة مذاهب : " الأول : أنه رجل صالح من بني إسرائيل ينسب إليه كل من عرف بالصلاح ، والمراد أنك كنت في الزهد كهرون فكيف صرت هكذا ، وهو قول قتادة وكعب وابن زيد والمغيرة بن شعبة ذكر أن هرون الصالح تبع جنازته أربعون ألفاً كلهم يسمون هرون تبركاً به وباسمه . الثاني : أنه أخو موسى عليه السلام وعن النبي صلى الله عليه وسلم إنما عنوا هرون النبي وكانت من أعقابه وإنما قيل أخت هرون كما يقال يا أخا همدان أي يا واحداً منهم . والثالث : كان رجلاً معلناً بالفسق فنسبت إليه بمعنى التشبيه لا بمعنى النسبة . الرابع : كان لها أخ يسمى هرون من صلحاء بني إسرائيل فعيرت به ، وهذا هو الأقرب لوجهين : الأول : أن الأصل في الكلام الحقيقة وإنما يكون ظاهر الآية محمولاً على حقيقتها لو كان لها أخ مسمى بهرون . الثاني : أنها أضيفت إليه ووصف أبواها بالصلاح وحينئذ يصير التوبيخ أشد لأن من كان حال أبويه وأخيه هذه الحالة يكون صدور الذنب عنه أفحش " . تفسير الرازي : ٢١ / ٢٠٨ – ٢٠٩ .

٢- وصف فعل (مريم) بقولهم : (فريا)[٢] الدال على العجب والدهشة ، جاء في اللسان : " الفَرِيُّ الأمر العظيم وفي التنزيل العزيز في قصة مريم لقد جِئتِ شيئاً فَرِيّاً قال الفراء : الفَرِيُّ الأَمر العظيم أَي جئت شيئاً عظيماً وقيل: جئت شيئاً فَرِيّاً أَي مصنوعاً مخْتلَقاً وفلان يَفْرِي الفَرِيَّ إِذا كان يأْتي بالعجب في عمله وفَرِيتُ دَهِشْتُ وحِرْتُ "[٣] .

إنَّ الثراء الدلالي للفظ (فري) واختلاف توجيهه في الآية الكريمة يساوق معنى التعجب الذي يلف سياق المشهد برمته .

٣- تكرير النداء : لتكرير النداء معان رصدها الباحثون تختلف باختلاف السياقات التي يرد فيها[٤] ، وهو في سياق كهذا يتضافر ودلالة التعجب .

٤- نداء مريم بإضافتها إلى (هارون) أيَّاً كان ما يحيل إليه هارون في هذه الآية فهو يدل على الصلاح والعفة وقرن مريم به ذاهب مذهب اللوم والعتب[٥] مما أتته – في نظرهم – يعززه تتمة الآية **(مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا)** ، فهي أخت رجل صالح ، أو من نسله ، وابنة رجل صالح ، وأُمٍ صالحة ، في إشارة إلى أنَّ الفواحش من أبناء الصالحين أفحش – أجلها الله – , وهذا يخدم في المحصلة النهائية مقام الدهشة .

ولنستكمل أفعال هذا المشهد ننظر في ردِّ مريم (ع) التي لم تنطق بشيء للرد سوى إشارة لوليدها قيل فيها : إنَّها أعظم من فعلتها[٦] – أجلها الله – ، مما أثار فعلاً توجيهياً بقولهم : **(كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا)** عدل الاستعمال القرآني غير مرة عن توظيف (كيف) في السؤال عن الحال إلى التعجب[٧] لما في هذا العدول من الجمع بين المعنيين فهو سؤال باعث على التعجب ، وفي ردِّ قوم مريم عليها نتلمس المعنى نفسه فسؤالهم لا يستدعي الإجابة بقدر ما يعرب عن تعجبهم[٨] ودهشتهم .

---

١ – ينظر أساليب الطلب : ٢٩٨ .

٢ – ذهب المفسرون إلى أن الفري هو " البديع وهو من فري الجلد يروى أنهم لما رأوها ومعها عيسى (ع) قالوا لها : { لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً } فيحتمل أن يكون المراد شيئاً عجيباً خارجاً عن العادة من غير تعيير وذم ويحتمل أن يكون مرادهم شيئاً عظيماً منكراً فيكون ذلك منهم على وجه الذم " تفسير الرازي : ٢١ / ٢٠٨ ، وقيل : " فيه خمسة تأويلات : أحدها : أنه القبيح من الإفتراء ، قاله الكلبي ،الثاني : أنه العمل العجيب ، قاله الأخفش ، الثالث : العظيم من الأمر ، قاله مجاهد ، وقتادة ، والسدي ، الرابع : أنه المتصنع مأخوذ من الفرية وهو الكذب ، قاله اليزيدي ،الخامس : أنَّه الباطل ." النكت والعيون : ٣ / ٣٦٨

٣ – لسان العرب : (فرا) ١٥ / ١٥٤.

٤ – ينظر أساليب الطلب : ٢٦٦

٥ – ينظر معاني القرآن للفراء : ٢ / ١٦٧ ، و تفسير البضاوي : ٢ / ٣٦٦ .

٦ – ينظر التحرير والتنوير : ١٦ / ٨٣

٧ – ومنه قوله تعالى (قُتِلَ كيف قدَّر) المدثر : ١٩ ، " فهو تعجيب من تقديره وإصابته فيه " الكشاف : ١١٥٦ .

٨ – ينظر الكشاف : ٦٣٦

ويذهب بعض المفسرين إلى أنَّ الاستفهام هنا خارج مخرج النفي فيخرج الفعل اللغوي على هذا الوجه من حيز التوجيهيات إلى حيز التقريريات فيكون المعنى أنَّهم أنكروا أن يكلموا مَن ليس من شأنه أن يتكلم[١] ، ويبدو لي أنَّ التعجب أليق في هذا السياق فهذا المشهد برمته قائم على معنى التعجب والدهشة .

يتضافر هذا مع استعمال (كان) في سياق الحاضر (كيف نكلم) مما أثار جملة توجيهات من قبل المفسرين لهذا الاستعمال ، فقيل في (كان) : إنَّها زائدة للتوكيد فيكون المعنى : كيف نكلم مَن هو في المهد[٢] ، على حين ذهب بعضهم إلى أن (كان) تأتي " لإيقاع مضمون الجملة في زمان ماضٍ مبهم يصلح لقريبه وبعيده وهو ههنا لقريبه خاصة "[٣]. وقيل بأنَّها بمعنى يكون والتقدير (مَن يكون في المهد صبيا)[٤] .

ثم يدخل عيسى (ع) الحوار : **(قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آَتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا)** بنص خلو من أي فعل توجيهي بل تهيمن عليه الأفعال التقريرية موزعة بين النفي والإثبات : (قال ، أتاني ، جعلني(٢)، أوصاني ،مادمت ، ولم يجعلني ، ولدت ، أُبعث) ، ثم يأتي نص اعتراضي ليس جزءاً من كلام عيسى (ع) **(ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)** .

يشتمل هذا النص على فعل توجهي واحد (كن فيكون) إنَّ أحداث القصة تبعث على العجب والدهشة لذا جاء الاعتراض بهذا النص وسط كلام عيسى (ع) ليكون حجة دامغة على مَن يحسب أن هذا الميلاد المعجز يليق بأن يكون ولداً لله تعالى عن ذلك علواً كبيراً ، إنَّ عظم قولهم على الله دفع إلى تغير نظام الفاصلة فبعد أن كان إيقاعها متراخٍ مسترسل تحول إلى إيقاع قوي فاقتضى تطويل الفواصل " بحرف النون أو بحرف الميم وقبلها مد طويل ، وكأنَّما ... يصدر حكماً بعد نهاية القصة ... ولهجة الحكم تقتضي أسلوباً موسيقياً غير أسلوب الاستعراض "[٥] ، والدليل على ذلك هو العود إلى الروي السابق بعد الانتهاء من الحكم[٦] .

ثم يُستأنف كلام عيسى (ع) : **(وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ)** يتكرر الفعل التقريري (قال إنّي عبدُ الله) بصيغة أخرى (وإنَّ الله ربي) بجملة مؤكدة كسابقتها ليدعم النتيجة المرتبطة بالرابط الحجاجي الفاء (فاعبدوه) وهو توجيه أمري صريح . ثم تتوالى جمل تقريرية تتضمن استشرافاً للمستقبل[٧] .

في قصة إبراهيم (ع) :

---

١ – التحرير والتنوير : ١٦ / ٩٦ ، والتفسير الكبير للرازي : ٢١ / ٢٠٩

٢ – التحرير والتنوير : ١٦ / ٩٦ ، والنكت والعيون : ٣ / ٣٦٩

٣ – الكشاف : ٦٣٦

٤ – ينظر النكت والعيون : ٣ / ٣٦٩

٥ – التصوير الفني في القرآن الكريم : ٨٥

٦ – نفسه : ٨٥

٧ – ينظر الآيات : (٣٧ – ٤٠) من سورة مريم .

قال تعالى : (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا)[١] .

تتمحور قصة إبراهيم (ع) في هذه السورة على مشهد حواري واحد بين إبراهيم حامل الرسالة و أبيه المولع بآلهة آبائه فهو حوار بين نقيضين كان فيه إبراهيم مبادراً به متبنياً له خطاب التلطف والتودد ، ولما كانت القصدية لا تنفك عن اللغة[٢] فنجد أنَّ دلالة التلطف تترشح من جملة أمور منها :

١- استعمل إستراتيجية النداء التوددي[٣] بقوله : (يا أبتِ) جاعلاً إياها مطلعاً لكل حججه فتكررت أربع مرات مرات ، وقد تقدم القول :إنَّ النداء بوصفه فعلاً لغوياً توجيهياً يلفت انتباه المخاطب إلى محتوى قضوي يشتمل عليه الفعل اللغوي اللاحق لفعل النداء وهو هاهنا الاستفهام .

٢- بعد أن استهل إبراهيم (ع) كلامه بقوله : (يا أبتِ) عمد إلى توظيف الاستفهام كحجة يلقيها على أبيه بسؤاله عن سبب عبادته لما لا جدوى منه : في قوله: **(يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا)**، فهو لا يسمع ، ولا يبصر ، ولا يغني شيئاً . إنَّ انتخاب إستراتيجية السؤال أليق من سواها في هذا المقام لسببين : الأول هو دفعه متلقيه إلى رصد الحجج والبحث عن دعائم عبادته ، وبعد البحث لا يجد حجة يدفع بها عن آلهته ، قال ابن عاشور :الاستفهام " مكنى به عن نفي العلّة المسؤول عنها بقوله : (لِم تعبد) فهو كناية عن التعجيز عن إبداء المسؤول عنه ، فهو من التورية في معنيين يحتملهما الاستفهام "[٤].

٣- أما السبب الثاني فإنَّ الاستفهام لتبيين السبب هو أليق بخطاب التلطف من النهي والأمر ولا سيما في أول التحاور فكان فعل الاستفهام بمثابة مقدمة أولى .

٤- التحول إلى فعل إخباري **(يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ)** ثم التحول إلى فعل أمري : **(فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا)** ليكونا – فعلي :الإخبار ، والأمر– بمثابة مقدمة ثانية ، لتوصل إلى النتيجة المنشودة **(يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا)** وقد انتخب فعل النهي ليكون خطاباً حاسماً قاطعاً ، وإن كان النداء (يا أبتِ) مازال يلقي بظلال التودد على الخطاب فضلاً عن انتخابه صفة (الرحمن) لبث

---

[١] – مريم : ٤١ – ٥٠

[٢] – ينظر التواصل والحجاج (عبد الرحمن طه) : ١٠

[٣] – هو تلطف باستدعاء النسب . ينظر البحر المحيط : ٦ / ٢٣٩

[٤] – التحرير والتنوير : ١٦ / ١١٤

الطمأنينة في نفسه ، ناهيك عن تعزيز الحجة بذكر العواقب (إني أخاف أن يمسك عذاب ...) وهو توجيه يعود فيه إبراهيم (ع) إستراتيجية التوجيه المتأدب[1] .

وبالعود إلى شكل الحوار فهو حوار تنازعي يجمع بين نقيضين ، نجد أنَّ أباه (الطرف الثاني) قد تبنى خطاب التهديد والوعيد وتشف اللغة عنه فيما يأتي :

١- عدل آزر – أبو إبراهيم – عن منادة ابنه بالمثل فلم يقل له : (يا بني) في مقابل قول إبراهيم : (يا أبت) زجراً له[2] .

٢- انتخاب آزر الاستفهام الحجاجي **(أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ)** الخارج عن حد طلب الإجابة إلى الإنكار والاستبعاد ، رفضاً لعرض إبراهيم مشوباً بالغضب لآلهته .

٣- التحول إلى خطاب التهديد المباشر **(لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا)** باستعماله فعل الأمر في دلالة على الحسم والقطع فضلاً عن الدلالة المعجمية للأفعال : (تنته ، أرجمنك ، اهجرني) المساوقة لخطاب التهديد والعنف .

ويعاود إبراهيم (ع) بعد هذا خطابه التوددي **(قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا)** مختتماً حواره مع أبيه بفعل توجيهي آخر وهو فعل الرجاء **(عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا)** بعد أن يئس من استجابة أبيه وقومه لما يدعوهم إليه .

ولنستكمل بنية المفارقة في هذا الحوار نتلمس استجابة الدلالات المعجمية لبعض المفردات لهذه المفارقة ، فيشتمل النص على ألفاظ وعبارات متقابلة دلالياً تعزز بنية المفارقة لغوياً لما لها من أثر حجاجي[3] :

(الرحمن ≠ الشيطان ، ولي ≠ عصي ، حفي ≠ شقي ، يا أبتِ ≠ يا إبراهيم) .

النص التكميلي :

وهو على شقين : الأول يُستكمل فيه أخبار النبيين ومَن اتبعهم من المؤمنين قال تعالى :

(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥١) وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢) وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (٥٣) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (٥٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (٥٨) فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (٦٠) جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (٦١) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (٦٢) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا

---

[1] – ينظر استراتيجيات الخطاب : ٣٦٠

[2] – ينظر الكشاف : ٦٣٨ ، والبحر المحيط : ٦ / ٢٤٠

[3] – ينظر في نظرية الحجاج : ٣٢

(٦٣) وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٦٤) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥))[١] .

في هذا الشق من النص التكميلي يجري سرد أخبار النبيين فتهيمن عليه إستراتيجية الإخبار والتقرير ، ولا يظهر فيه فعلاً توجيهياً إلا في آخره ، فبعد استعراض أحوال النبيين والمؤمنين وما سينالونه من خير في الآخرة يأتي التوجيه بالسير على هديهم بتوجيه إلزامي : (فاعبده ، واصطبر) فالأمر بالعبادة والصبر عليها هو المغزى من تلك الحكايات والقصص ، ثم يُشفع الأمر بحجة تعززه إلى جانب ما تقدم من حجج وبراهين[٢] انتُخب لها الاستفهام الحجاجي قالباً تسبك فيه : **(هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا)** بالسؤال عن معرفة شبيه أو مثيل لله جلَّ وعلا[٣] بعد أن تبينت بعض صفاته جلَّ جلاله في النص المتقدم برمته ، والاستفهام هاهنا استفهام نفي واستبعاد[٤] ، قال ابن عباس : إنَّ (هل) بمعنى (لا) أي : (لا تعلم له سمياً)[٥] .

أما الشق الثاني فيأتي فيه وصف للمعاندين والكفار وما سيلاقونه يوم الدين ، ويهيمن عليه الاستفهام الحجاجي ففيه رصد لحجج الكافرين وردِّها فيكون السؤال الحجاجي هو الوسيلة الأنفع حجاجياً في سياق كهذا .

قال تعالى : **(وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (٦٧) فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا (٧٠) وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (٧٢) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٣) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا (٧٤) قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا (٧٥) وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا (٧٦) أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا (٧٧) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٧٨) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا (٨٠) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (٨٣) فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (٨٤) يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا (٨٦) لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٨٧) وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا**

---

[١] – مريم : ٥١ – ٦٥

[٢] – قال ابن عاشور : " وجملة { هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً } واقعة موقع التعليل للأمر بعبادته والاصطبار عليها " . التحرير والتنوير : ١٦ / ١٤٣ .

[٣] – ينظر الكشاف : ٦٤٢ ، والتحرير والتنوير : ١٦ / ١٤٣ .

[٤] – ينظر دراسة أسلوبية في سورة مريم : ١٦١ .

[٥] . ينظر تفسير القرطبي : ١٣ / ٤٨٤ .

الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (٩٦) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا (٩٧) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (٩٨))[١] .

في الآيات (٦٦ – ٧٤) نرصد حجاجاً يتمحور حول سؤال المنكرين للبعث **(وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا)** يسلط الاستفهام الحجاجي بالهمزة على الفعل (أُخرج) ، وهو استفهام إنكاري[٢] مشوب باستخفاف بيوم البعث ، فالأصل في التركيب هو : (أئذا ما متُّ أُخرج حياً) مما يدفعنا إلى السؤال عن جدوى قوله تعالى على لسان المعاند : (لسوف) ومعلوم ،أنَّ دخول لام الابتداء المؤكدة[٣] على (سوف) المستقبلية يفيد توكيد وقوع الفعل ولو تأخر[٤] ؛ لذا أستبعد أن يكون قوله : (لسوف) كلام المعاند بل هو مجلوب على الحكاية فهو كلام النبي[٥] وما فيه من من تأكيد وتيقن هو للنبي وليس للمعاند ؛ وعليه فإنَّ الاستفهام الإنكاري لم يقتصر على إنكار البعث والاستخفاف به ، بل شمل لغة النبي وثقته بوقوعه أيضاً.

فيأتي الردُّ على إنكار المعاندين بالسؤال الإنكاري أيضاً **(أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا)**. تأتي الحجة مفحمة للمعاندين بأنَّ إعادة الخلق بعد الموت ثانية أهون من الخلق من العدم ابتداء ، فلما كان الله جلَّ وعلا خالق الخلق أول مرة فلا عجب من إعادة الخلق ثانية[٦] .

ثم يجري التحول من ردِّ الحجة إلى الوعيد للمنكرين على عنادهم وإنكارهم **(فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا * ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا * ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا * وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا)** .

ثم يأتي سؤال حجاجي آخر من لدن المنكرين **(قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا)** وهنا الاستفهام تقريري[٧] إذ يخبر النص القرآني بأنَّهم بعد أن رُدت حجتهم في إنكار البعث قالوا بحسن شارتهم في الدنيا من تزين ووفرة أموال مما يدل على علو شأنهم عند الله[٨] . فتأتي الحجة بأسلوب الإخبار والتقرير **(وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا)** فالمتاع وحسن المنظر والهيئة لم يمنع مَن هم أحسن منهم من الهلاك ، وهذه الآية جملة معترضة[٩] بين قول الكافرين ، وما سيُلقن للرسول (ص) ليقوله ردَّاً على جحدهم وعنادهم .

أما الآيات (٧٥ – ٩٨) التي تمثل الرد الذي يتلقاه الرسول (ص) ليلقيه على الكافرين فيشهد تحولاً أسلوبياً بتغير الفاصلة القرآنية من (الياء المشفوعة بألف الإطلاق) إلى (دال مشددة أو زياً مشفوعة بألف إطلاق) " وإنَّك لتحس لمسات الرحمة الندية ودبيبها اللطيف في الكلمات والعبارات و ... تحس أنَّ للسورة إيقاعاً موسيقياً خاصاً فحتى

---

[١] – مريم : ٦٦ – ٩٨

[٢] – ينظر التحرير والتنوير : ١٦ / ١٤٥

[٣] – ينظر الجنى الداني : ٤٩٥

[٤] – ينظر البحر المحيط : ٦ / ٢٥٥

[٥] – ينظر المحرر الوجيز : ١٢٣٦

[٦] – ينظر التحرير والتنوير : ١٦ /١٥٤

[٧] – نفسه : ١٦ / ١٤٦

[٨] – ينظر الكشاف : ٦٤٥ ، والبحر المحيط : ٦ / ٢٦٠

[٩] – ينظر التحرير والتنوير : ١٦ / ١٥٤

جرس ألفاظها وفواصلها فيه رخاء وفيه عمق : رضيا ، سريا ، حفيا ، نجياً . فأمَّا المواضع التي تقتضي الشد والعنف ، فتجيء فيها الفاصلة مشددة دالاً في الغالب : مدّاً ، ضداً ، إدّاً ، هدّاً ، أو زاياً : عزّا ، أزّاً . "[1] .

إنَّ هذا التحول الإيقاعي ضمن مناخاً نفسياً يتسم بالحزم والقوة يتساوق ودلالة خطاب التهديد الرباني الموكل إلى الرسول (ص) إيصاله للكافرين ردَّاً على أسئلتهم السابقة **(قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا)** .

تشتمل الآية الكريمة على فعل أمري (فليمدد) عدل به عن صيغة الأمر (افعل) إلى صيغة المضارع المسبوق بلام الأمر (ليفعل) ، وقد ذهب المفسرون إلى أنَّه " يحتمل أن يكون على معناه من الطلب ... ويحتمل أن يكون خبراً في المعنى وصورته صورة الأمر[2] ، كأنَّه يقول : من كان ضالاً من الأمم فعادة الله له أنَّه يمدد له ولا يعاجله حتى يفضي ذلك إلى عذابه في الآخرة . "[3] .

تأتي الآية الكريمة رداً دقيقاً لما جاء في قوله تعالى على لسان الكفار : **(أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا)** ففسر لهم سرَّ علوهم وحسن زينتهم في الدنيا ؛ فيمدد له الله حتى تحين الساعة فيرى بأم عينه أيَّ الفريقين خير ؟ ثم يثبت النص الشريف الوصف المفارق لما وصفوا به أنفسهم : (شر مكاناً ≠ خير مقاماً) ، و (أضعف جنداً ≠ أحسن نادياً[4]) .

ويبدو أنَّ إستراتيجية السؤال الحجاجي مازالت هي الأنفع حجاجياً هنا إذ عاود النص القرآني طرح السؤال مرة أخرى لكنَّ متلقيه هذه المرة هو الرسول (ص) **(أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا)**

بمعنى أعلمت بخبر الكافر[5] ... ؟ والاستفهام خارج مخرج التعجب من حال هذا الكافر وقوله[6] . فلم يأتي الإخبار الإخبار بالقصة بفعل الأمر (اعلم أو انظر) أو التذكير بها إن كان عالماً بها بل عدل عن ذلك ليضمن معنى التعجيب والدهشة من حاله ، ثم جاء الرد عليه بالإستراتيجية نفسها **(أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا)** ؟ بالسؤال الخارج مخرج التعجيب والإنكار أيضاً[7] .

---

[1] – في ظلال القرآن : ٢٣٠٠

[2] – قال الزمخشري : " فأخرج على لفظ الأمر إيذاناً بوجوب ذلك ، وأنه مفعول لا محالة ، كالمأمور به الممتثل ، لتقطع معاذير الضالّ " الكشاف : ٦٤٥

[3] – البحر المحيط : ٦ / ٢٦١

[4] – النَّديُّ : هو المجلس الذي يجتمع فيه الرجال ، والنادي مجتمع القوم ومجلسهم ، وجمعه أندية . ينظر لسان العرب (ندي) : ١٥ / ٣١٦ – ٣١٧ .

[5] – قيل في سبب نزول الآية الكريمة : إنَّ " خبّاباً كان يصنع السيوف في مكة ، فعمل للعاصي بن وائل سَيفاً وكان ثمنه دَيناً على العاصي ، وكان خبّاب قد أسلم ، فجاء خبّاب يتقاضى دَينه من العاصي فقال له العاصي بن وائل : لا أقضيكه حتى تكفر بمحمّد ، فقال خبّاب (وقد غضب) : لا أكفر بمحمد حتى يميتك الله ثمّ يبعثك . قال العاصي : أو مبعوثٌ أنا بعد الموت؟ قال : نعم . قال (العاصي متهكماً) : إذا كان ذلك فسيكون لي مال وولد وعند ذلك أقضيك دَينَك» . فنزلت هذه الآية في ذلك . فالعاصي بن وائل هو المراد بالذي كفر بآياتنا " . التحرير والتنوير : ١٦ / ١٥٩

[6] – التحرير والتنوير : ١٦ / ١٥٩

[7] – نفسه : ١٦ / ١٥٩

ويظل الحجاج مستمراً لكن لما يخالج الرسول (ص) والمؤمنين من السؤال في قدرة الله عليهم وردعهم في الدنيا بالنظر إلى ثنائية (تماديهم في الكفر / تطاول أمدهم في الدنيا) ، فيأتي الرد على هذا التساؤل المضمر على صيغتين : الأول بصيغة الاستفهام الحجاجي **(أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا)** فلو شاء الله أن يمنعهم لفعل لكنَّه جلَّ وعلا جعل الشياطين " تغريهم على المعاصي وتهيجهم لها بالوساوس والتسويلات ، والمعنى خلينا بينهم وبينهم ولم نمنعهم ولو شاء لمنعهم ، والمراد تعجيب رسول الله (ص) بعد الآيات التي ذكر فيها العتاة من الكفار وأقاويلهم"[1] . فيتضاعف عقابهم أضعافاً .

أما الصيغة الثانية فهي صيغة النهي **(فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا)** وقد جرى التمهيد لفحواها بالمفارقة في قوله تعالى : **(كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ)** و **(كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ)** بالجمع بين (كلا) الدالة على الزجر والردع[2] وما تحيل عليه من جزم وقطع و (السين) الدالة على التنفيس والتوسع[3] وما تحيل عليه من تسويف وتراخٍ ، في إشارة إلى أن العقاب آتٍ وإن تأخر ، ثم يأتي التصريح بمغزى التأخير بالنهي (لا تعجل ...) .

مازال للسؤال الحجاجي أثره الواضح في هذا الجزء من السورة فقد انتُخِب ليكون ختاماً لها **(وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا)** خارجاً مخرج التقرير فالمعنى (لا تحس ، ولا تسمع)[4] ، في الآية دعامة للحجة السابقة بإثبات قدرته جلَّ جلاله على إهلاكهم في الدنيا كما فعل مع الذين من قبلهم .

تم بحمد الله

---

[1] – الكشاف : ٦٤٧

[2] – ينظر الجنى الداني : ٥٧٧

[3] – ينظر مغني اللبيب : ١ / ١٥٨

[4] – تفسير الرازي : ٢١ /٢٥٠

خاتمة البحث :

يخلص البحث في سورة مريم إلى جملة أمور منها ما كان نتائج تحليلية مبثوثة في صفحات البحث ، ومنها ما يمثل ظاهرة في النص وهذه التي سنجملها فيما يأتي :

- لا يقصر البحث التوجيه بالتمني على ما يتحصل من الأدوات المعهودة في العربية بل يُدخل فيه كل طلب حصول شيء على سبيل المحبة كالترجي المتحقق بأدوات خاصة ، و الدعاء والتضرع والنصح المتحقق بانزياح صيغ الطلب الإلزامية (الأمر والنهي) عن معناها الحقيقي إلى هذه المعاني.
- تنقسم سورة مريم من حيث مضمونها على قسمين : الأول قصصي يتمثل بالآيات (١ – ٥٠) وفيه ثلاث قصص : قصة زكريا (ع) ، وقصة مريم (ع) ، وقصة إبراهيم (ع) ، والقسم الثاني قسم تكميلي فيه وصف للأنبياء وأحوال الكافرين ، ويتمثل بالأبيات (٥١ – ٩٨) ويبدو حضور الأفعال التوجيهية في القسم الأول من السورة بشكل لافت إذ تشتمل السورة برمتها على ستة وأربعين فعلاً توجيهياً يتركز حضور خمسة وثلاثين فعلاً منها في السياق القصصي – أي القسم الأول– وذلك لأهمية الإستراتيجية التوجيهية على اختلاف أساليبها اللغوية في السياقات الحوارية ، علماً أنَّ أغلب السياقات القصصية تكون قائمة على سرد الأحداث فتكون الهيمنة للأفعال الإخبارية ، لكن الحال في القصص القرآني مختلف ولاسيما في هذه السورة المباركة فالقصص فيها قائم على التحاور بين شخصيات القصة .
- في السورة المباركة ألوان من الحوار ولا سيما في الجزء القصصي منها كالحوار التواصلي بين زكريا (ع) والله جلَّ وعلا ، وحوار مريم (ع) مع الملك الصالح ، ومنه الحوار التنازعي الذي يقع بين طرفي النقيض إبراهيم (ع) وأبيه ، وقد كان للأفعال التوجيهية أثرها في تحديد مسار هذه الألوان من الحوار، فعلى الرغم من أن الحوار كان تنازعياً بين إبراهيم وأبيه لكن توظيف إستراتيجية التوجيه جعل إبراهيم يعتمد أسلوب التأدب الأقصى وتوظيف قاعدة التعاطف ، في المقابل استعمل أبوه أسلوب التهديد والوعيد وبتوظيف إستراتيجية التوجيه أيضاً .
- رصد البحث التفاتات تداولية دقيقة من قبل المفسرين إذ استوقفتهم مسائل تصب اليوم في حقل التداوليات لكنها لم تكن منظمة بشكل يصح أن يقال عنها : جذور لنظرية تداولية بل هي شذرات متناثرة تنم عن نظر تداولي من قبيل ذلك ما يعرف اليوم بالاستلزام الحواري الذي ألمح إليه ابن عاشور في تفسيره لقوله تعالى : (ولم أكن بدعائك ربي شقيا) فلم يرد الإخبار إنما أراد استمرار العطاء والحث عليه . ومن هذا كثير عند المفسرين .

- شكل التقابل الدلالي في السورة لافتات تخدم البحث التداولي استوقفت الباحث مثلما استوقفت المفسرين من قبل من مثل : (نداء ≠ خفيا) ، و(طلب الآية ≠ الأمر بالصمت) ، و(يا أبت ≠ يا إبراهيم) ، (أضعف جندا ≠ أحسن نديا) ، و(شر مكاناً ≠ خير مقاماً) ، وغيرها .
- أثبت البحث أن الأسلوب الأنفع حجاجياً في النص التكميلي كان الاستفهام الحجاجي إذ عدل إليه الاستعمال القرآني غير مرة ، وفيه يخرج الاستفهام من معناه الحقيقي – طلب الفهم – إلى معان مجازية أخرى لغرض الحجاج كالذي جرى في الآية (٦٦) ، و(٧٧) ، و(٧٨)، و(٨٣) .

مراجع البحث

- **القرآن الكريم**

الكتب المطبوعة

- آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ، د. محمود أحمد نحلة ، دار المعرفة الجامعية ، ٢٠٠٢م .
- أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين ، د. قيس إسماعيل الأوسي ، بيت الحكمة ، بغداد ، ١٩٨٨م .
- استراتيجيات الخطاب ، مقاربة لغوية تداولية ، د. عبد الهادي بن ظافر الشهري ، دار الكتاب الجديد ، المتحدة ، بيروت ،ط١، ٢٠٠٤م .
- الاستلزام الحواري في التداول اللساني من الوعي بالخصوصيات النوعية للظاهرة إلى وضع القوانين الضابطة لها ، للعياشي أدراوي ، دار الزمان ، الرباط ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ،ط١ ، ٢٠١١م
- الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة دراسة نحوية تداولية ، للدكتور خالد ميلاد ،نشر جامعة منوبة ، المؤسسة العربية للتوزيع ، تونس ، ط١ ، ٢٠٠١م .
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل (تفسير البيضاوي) ، للقاضي ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر الشيرازي البيضاوي (ت٧٩١هـ) ، تحقيق : محمد صبحي بن حسن ، والدكتور محمود أحمد الأطرش ، دار الرشيد /دمشق ، مؤسسة الإيمان / بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٠م .
- التداولية عند العلماء العرب ، دراسة تداولية لظاهرة (الأفعال الكلامية) في التراث اللساني العربي ، د. مسعود صحراوي ، دار الطليعة ، بيروت ،ط١ ، ٢٠٠٥ م .
- التداولية من أوستن إلى غوفمان ، فيليب بلانشيه ،ترجمة : صابر الحباشة ، دار الحوار للنشر والتوزيع ، اللاذقية ، ط١ ، ٢٠٠٧م .
- التداولية اليوم علم جديد في التواصل ، آن روبول ، وجاك موشلار ، ترجمة : الدكتور سيف الدين دغفوس ، والدكتور محمد الشيباني ، مراجعة : الدكتور لطيف زيتوني ، المنظمة العربية للترجمة ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٣م .
- التصوير الفني في القرآن الكريم ، لسيد قطب ، مكتبة القرآن (١) دار الشروق .

- تفسير ابن عرفة ، لأبي عبد الله محمد بن محمد بن عرفة الورغمي (ت٨٠٣هـ) تحقيق : جلال الأسيوطي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٨م .
- تفسير البحر المحيط ، لأثير الدين محمد بن يوسف بن علي الشهير بابي حيان الأندلس ، تحقيق : الدكتور عبد الرزاق المهدي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٢ م .
- تفسير البغوي (معالم التنزيل) لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت٥١٦هـ) حققه وخرَّج أحاديثه : محمد عبد الله النمر ، وعثمان جمعة خميرية ، وسليمان مسلم الحرش ، دار طيبة للنشر والتوزيع ، ط١ ، ١٩٨٩م .
- تفسير التحرير والتنوير ، للشيخ محمد الطاهر بن عاشور ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، ١٩٨٤م.
- تفسير الفخر الرازي الشهير بـ(مفاتيح الغيب) لأبي محمد فخر الدين بن ضياء الدين عمر الرازي (ت٦٠٤هـ) دار الفكر للطباعة والنشر ،بيروت ، ط١ ، ١٩١٨ م .
- تفسير القرآن العظيم ، للحافظ عماد الدين أبي الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير (ت٧٧٤هـ) وضع حواشيه وعلق عليه : محمد حسين شمس الدين ،منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٨م .
- تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري (٥٣٨هـ) ،اعتنى به وعلَّق عليه : خليل مؤمون شيحا، دار المعرفة ، بيروت ، ط٣ ، ٢٠٠٩م .
- التواصل والحجاج ،عبد الرحمن طه ،مطبعة المعارف الجديدة ، الرباط ،د. ت .
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، قدم له الشيخ عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل ، والشيخ محمد بن صالح العثيمن ، تحقيق : الدكتور عبد الرحمن بن معلا اللويحق ، دار السلام للنشر والتوزيع ، الرياض ، ط٢ ، ٢٠٠٢ م.
- الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي القرآن (تفسير القرطبي) ،لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي (ت٦٧١هـ) تحقيق : الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي ، شارك في تحقيق الجزء (١٣) محمد أنس مصطفى الخن ، ومحمد معتز كريم الدين ، مؤسسة الرسالة ، ط١ ، ٢٠٠٦ م .
- الجنى الداني في حروف المعاني ، للحسن بن قاسم المرادي ، تحقيق : الدكتور فخر الدين قباوة ، و الأستاذ محمد نديم فاضل ، دار الكتب العلمية بيروت ، ط١ ، ١٩٩٢م .
- حاشية الخضري على شرح ابن عقيل علة ألفية ابن مالك ، للشيخ محمد الخضري الشافعي، شرح وتعليق : تركي فر حان المصطفى ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط٢ ، ٢٠٠٥م .
- الحجاج في القرآن الكريم من خلال خصائصه الاسلوبية ، د. عبد الله صوالة ، دار الفارابي ، بيروت ، ط٢ ، ٢٠٠٧م .
- الخصائص ، لعثمان بن جني أبي الفتح (ت٣٩٢)هـ، تحقيق: محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط٤ ،١٩٩٩م.

- خطاب الحكاية ، جرار جينيت ، ترجمة : محمد المعتصم وآخرين ، المجلس الأعلى للثقافة ، ط٢ ، ١٩٩٧م .
- الخطاب والحجاج ، للدكتور أبي بكر العزاوي ، دار الأحمدية للنشر ، الدار البيضاء ،ط١ ، ٢٠٠٧م
- دائرة الأعمال اللغوية مراجعات ومقترحات ، الدكتور شكري المبخوت ،دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت ، ط١ ، ٢٠١٠م .
- دراسة أسلوبية في سورة مريم ،معين رفيع أحمد صالح ،رسالة ماجستير عن جامعة النجاح في نابلس ، فلسطين ، ٢٠٠٣م .
- دلائل الإعجاز في علم المعاني تأليف الإمام عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) ، صحح أصله الشيخ محمد عبده و الشيخ محمد محمود شكري الشنقيطي ، ووقف على تصحيح طبعه وعلق على حواشيه : السيد محمد رشيد رضا ، مكتبة القاهرة ، ١٩٦١م
- شرح التصريح على التوضيح أو التصريح بمضمون التوضيح في النحو ، للشيخ خالد الأزهري (٩٠٥هـ) تحقيق : محمد باسل عيون السود ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط٢ ، ٢٠٠٦ م .
- شرح المفصل للزمخشري ، لموفق الدين أبي البقاء بن يعيش الموصلي (٦٤٣هـ) ، قدَّم له ووضع حواشيه : الدكتور اميل بديع يعقوب ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ،ط١ ، ٢٠٠١م .
- شروح التلخيص، وهي : مختصر العلامة سعد الدين التفتازاني ، ومواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربي ، وعروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح ، لبهاء الدين السبكي ، ط٤ ، مؤسسة دار البيان العربي، ودار الهدي ، بيروت /١٩٩٢م .
- عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح ، للشيخ بهاء الدين السبكي (٧٧٣هـ) ، تحقيق : الدكتور عبد الحميد هنداوي ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٣م .
- في البراجماتية الأفعال الانجازية في العربية المعاصرة دراسة دلالية في معجم سياقي ،للدكتور علي محمود الصراف ، مكتبة الآداب ، مصر ،ط١ ، ٢٠١٠م .
- في ظلال القرآن ، لسيد قطب ، دار الشروق ، القاهرة ،ط٣٢ ، ٢٠٠٣م .
- في النحو العربي نقد وتوجيه ، د. مهدي المخزومي، دار الرائد العربي ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨٦م .
- في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات ، د. عبد الله صوالة ، مسكيلياني للنشر و التوزيع، تونس ، ط١ ، ٢٠١١م .
- القاموس الموسوعي للتداولية ، جاك موشلار وآن ريبول ، ترجمة مجموعة من الاساتذة والباحثين بإشراف عز الدين المجدوب ومراجعة خالد ميلاد (المركز الوطني للترجمة في تونس) دار سيناترا ، تونس ، ٢٠١٠م .
- كتاب سيبويه، لعمرو بن عثمان بن قنبر أبي بشر(ت١٨٠هـ) تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، عالم الكتب ، بيروت ،ومطابع دار القلم في القاهرة ، د٠ت ٠
- لسان العرب ، للإمام العلامة جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري(ت ٧١١هـ) ،دار صادر، بيروت ، د٠ت٠

- اللغة العربية معناها ومبناها د٠تمام حسان ،الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣م .
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، لابن عطية الأندلسي (٥٤١هـ) ، تقديم مجد مكي ، دار ابن حزم ، د.ت .
- معاني القرآن ، لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء (٢٠٧هـ) عالم الكتب ، بيروت ، ط٣ ، ١٩٨٣م
- معاني القرآن وإعرابه ، لأبي اسحق إبراهيم بن السري الزجاج (٣١١هـ) ، شرح وتحقيق : الدكتور عبد الجليل عبده شلبي ، عالم الكتب ، ط١ ، ١٩٨٨م .
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ،لابن هشام الأنصاري (ت ٧٦١ هـ) طبعة جديدة منقحة ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ،المكتبة العصرية ،بيروت ٢٠٠٥م.
- مفتاح العلوم ، ليوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي (٦٢٦هـ) ، ضبطه وعلَّق عليه نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨٧م .
- نظرية أفعال الكلام العامة (كيف ننجز الأشياء بالكلمات) ، اوستين ، ترجمة : عبد القادر قينيني ،أفريقيا الشرق ، ١٩٩١م .
- النكت والعيون (تفسير الماوردي) لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري (٤٥٠هـ) ، راجعه وعلَّق عليه السيد بن عبد المقصود بن عبد المنعم ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ومؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، د.ت .

البحوث والدوريات

- نظرية الأفعال الكلامية في البلاغة العربية ، الدكتور ملاوي صلاح الدين ، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية ، جامعة بسكرة ، الجزائر ، العدد (٤) لسنة ٢٠٠٩ م.
- نظرية الأفعال الكلامية في ظل جهود أوستن ، يسمينة عبد السلام ، مجلة المَخبر ، جامعة بسكرة ، الجزائر ، العدد (١٠) لسنة ٢٠١٤م .
- نظرية الحدث الكلامي من أوستن إلى سيرل ، الدكتور العيد جلولي ، جامعة قاصدي مرباح ، الجزائر ،مجلة الأثر ، العدد الخاص بأشغال الملتقى الدولي الرابع في تحليل الخطاب .
- نظرية الفعل الكلامي من التراث العربي والمناهج الحديثة دراسة تداولية ، محمد مدور ، مجلة الواحات للبحوث والدراسات ، جامعة غرداية ، الجزائر، العدد (١٦) لسنة ٢٠١٢م .